خلو البال

يوسف إدريس



خلو البال

تأليف
يوسف إدريس



خلو البال

يوسف إدريس

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٠٥١ ٢

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٦
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠

المحتويات

إلى حبيبتي

حبيبتي، هذا أول خطاب أكتبه لك، وسيكون آخر خطاب. مع ذرَّات الدخان المُتصاعدة من سيجارتي آلاف المرات كتبتُ، مع ليالي العربدة كتبتُ، مع كل حرف كتبتُه كتبتُ، وكانت الكتابة دائمًا لك وحدك، لا قبلك ولا بعدك كتبتُ.

كنت أحبك، بالحب خُلِقت، وبالحب أعيش، وبالحب أحلم وأنام وأتصوَّف، وبالحب أيضًا أُجَنُّ، وبه يرتدُّ لي العقل وأثوب. حين أحببتك هجرتُ الدنيا تمامًا وعشتُ في مَعبدك، كجدِّي حين عاد من أرض النبي سائرًا على قدمَيه كما ذهب، وأبى بعد عودته إلا أن يتَّخذ له المسجد بيتًا ومأوًى. ولقد أراني أبي المِسمار الذي كان أبوه يُعلِّق عليه قُفطانًا مغروزًا في حائط مسجد قريتنا إلى الآن، وجدِّي مات بعد عام من ولادة أبي؛ ولهذا كان يعتبر المسمار كل آيات الأُبوَّة عنده، وكل ما له من ميراث.

أحبك. لا أقولها قوية كما اعتدت، صاعدة نداءً عامرًا بالتوتر كما كان ينطلق من أعمق الأعماق: أحبك. أقولها مُحبَطًا كأن قائلها انتهى، وصوته ليس سوى رجْعِ الصدى.

أحبك. أقولها وكأنما أرثيك وأرثي نفسي التي أحببتك بها. أقولها كميتٍ يُنادي حيًّا أو كحيٍّ يُنادي ميتًا. أقولها بعد أن تحوَّل الحب عندي من قُوًى خفيَّةٍ دافعة كالكهرباء، غير محسوسة كالجاذبية، تحوَّل من ظاهرة إلى كلمات إلى حروف تتجسَّد وترسم علامة الصوت وعلامة الإحساس. وويلٌ للحب حين يتحوَّل من كونٍ إلى كلمٍ تحدُّه كلمات؛ فالكلمات مهما صخبت ومهما عبَّرت، فهي كلمات، كآثار الخُطا على رمال شاطئ؛ أي فارق هائل بينها وبين القدم الحية الدافئة التي طبعت البصمات.

أيتها المُنافقة، الكاذبة الصادقة، الفقيرة الغنيَّة، المُحافظة السائبة، الضاحكة في عُهر، المُبتسمة في طُهر، القادرة العاجزة، المُخلِصة الغادرة، أحبك.

أحبك لا لأنك هكذا، ولكني كما آمن جدِّي بالله وجعل من بيته بيته، آمنتُ أنا بك، وكما المسمار في الحائط هو كل ميراث أبي من جدِّي وكل ما آل إليه منه، فأنت مسماري. أنت أبي وجدِّي، أنت آلهتي، أنت كل ما استمتعت به في الحياة من جنَّات، وكل ما فيك وما عذَّبتَنيه من جحيم.

أكتب لأول مرة لأقول إني مرعوب.

يُرعِبني أن أكون ما زلت أحبك.

ويُرعِبني أكثر أن أكون قد شُفِيت من حبك.

فعندما أحبك لا أستطيع حبًّا غيرك، وإن كففت عن حبك وشُفِيت فأنا لا أستطيع حبًّا بعدك؛ فمن حبك أحب، ولأني أحبك أشتهي الحب، وبحبك تنقلب الحياة جحيمًا، وبغير حبك يصبح الجحيم هو الحياة.

فماذا أفعل؟

أيتها الحبيبة، الجنة النار، بلدي، ماذا أفعل؟

من توفيق الحكيم إلى يوسف إدريس

توفيق الحكيم يسأل:

لماذا سكت صوتك المسموع؟

عزيزي الدكتور يوسف إدريس.

أكتب إليك هذا لأسألك سؤالًا، وأكتبه حتى أُحدِّده، وقد ترى في السؤال تطفلًا، وقد يراه آخرون تدخلًا، ولكني أنا أراه واجبًا. وهذا الواجب لا يفرضه موضعي الرسمي باعتباري رئيس اتحاد الكتاب، بل يفرضه ما يصفني به بعض الأصدقاء من الأدباء من أني شيخ الأدباء، لا بحكم الفضل، بل بحكم السن، وقد شرحت لبعضهم رأيي في هذه الصفة بقولي إني شيخ حارة الأدباء؛ بالمعنى القديم لشيخ الحارة في بلدنا، من أنه كان هو الذي يهتمُّ بأحوال أهل الحارة، ويسهر على مصالحهم ويُعالج مشاكلهم؛ بهذا المعنى أرى من واجبي أن أسأل عن حال أديب مرموق هو يوسف إدريس، أراه في مبنى الأهرام بجسمه، ولا أراه على صفحاته بقلمه، ولا شك أن الآلاف من القُراء يُشاركونني في هذا السؤال: أين ذهب هذا القلم المطبوع؟ ولماذا سكت هذا الصوت المسموع؟ وفي زماننا الغابر، كنت أرى الشيخ سلامة حجازي يقف على المسرح في مسرحية شكسبير، يصيح أمام جوليت النائمة المُخدرة بلحنه الشهير: أجوليت، ما هذا السكوت؟ وأنا اليوم أصيح بصوتٍ أجشّ ولحنٍ جهير: أيوسف، ما هذا السكوت؟

توفيق الحكيم

ويوسف إدريس يُجيب:

أستاذنا الكبير توفيق الحكيم.

رسالتك تلك، ولو أنها بلا تاريخ فإن لها قيمةً تاريخية عندي، وعند أي كاتب في مصر أو في العالم العربي؛ فهي من شيخ الكُتاب حين يقرأ، وحين يُحِس بغياب كاتب، وقد أكون أنا الغائب هذه المرة، ولكني لن أكون الأخير، فما أكثر الأسباب التي تُرغم الكاتب على الغيات في عالمنا هذا! ولكن المهم أننا أخيرًا قد حبانا الله بشيخٍ جليل لفُنوننا وآدابنا، «يُتمِّم» بين الحين والحين على أبناء المهنة، ويعرف من مات ومن عاش ومن غاب ومن غُيب.

وبعد.

لم أسكت يا أستاذنا ولن أسكت؛ فالسكوت ليس نومًا ولا بتأثير مُخدِّر يضعه كاهن لكاتب، السكوت للكاتب موتٌ مُحقق. وإذا كنت أنا قد سكتُّ عن الأهرام أو سكتَ الأهرام عني، فأسباب السكوت عاصفة كانت هوجاء يعرفها الناس جميعًا، وباستطاعتك أن تسأل عنها أي عابر سبيل في شارع الجلاء. إذا كان هذا قد حدث فلا تزال المسئولية مُشتركة، ولا يزال السؤال حادًّا كالنصل: وما ذنب القارئ؟

وكان كثيرون قد أرسلوا يسألونني ويُلحُّون في السؤال، حتى اضطررت أن أُرسِل لبعضهم خطاباتٍ خاصة. أما حين يجيء السؤال من أشهر كاتب وأشهر قارئ، بالتالي فلا أملك ولا يملك الأهرم — فيما أعتقد — إلا أن نُجيبه على الملأ.

ولا أملك أنا أيضًا إلا أن أعِدك — أيها الأستاذ والقيمة والرمز — أن أكون عند حُسنِ ظنِّك وظنِّ القُراء الأعزاء، وإلا أن أبدأ الكتابة في هذا الأسبوع إن شاء الله، ودومًا أنت هكذا، وستظلُّ سبَّاقًا إلى المودة وإلى السلام.

تمنيَّاتي لك وللكُتاب والقُراء جميعًا بعامٍ حافل بكل ما هو «أرفع وأنفع» في الفكر والخلق والإبداع.

يوسف إدريس

خلو البال

من المستحيل أن يحدُث هذا إلا في أبيات الشعر وخيالات الكُتاب.

وطني لو شُغلتُ بالخُلد عنه   نازعَتني إليه في الخُلد نفسي

وما كنت فيه كان الخلد نفسه. قطار سريع، أسرع قطار في العالم، ثلاثمائة وخمسون كيلومترًا في الساعة. العربة مكيَّفةٌ منمَّقةٌ فاخرة المقاعد والمناضد. أنظر من النافذة فأكاد أدوخ من الإحساس بالسرعة. الطائرة أسرع، ولكنك تقيس سرعتها بحركتها فوق السحاب؛ تلك الحركة غير المحسوسة، ببطء تُقبل السحابة، ببطءٍ تعبُرها الطائرة، ببطءٍ أشد تنتقل من قمة جبل إلى قمة جبل آخر.

هنا أنت والأرض مباشرة، والسرعة من شدتها لا تجعلك تتبيَّن معالم ما تمرُّ به، وأنا أحب السرعة وأعشقها. أكثر ما يغيظني أن أنتظر أو أصبر أو يطول بي البال. السرعة هي البدء الآن والانتهاء الآن والظفر بالهدف أو العمل فورًا ودونَ زمنٍ سخيفٍ ممتدٍّ يحُول بينك وبين ما تريد. وأفرح أنا بهذا القطار الفرنسي السريع، الـ «تي في تي»، وهي الأحرف الأولى من كلمات القطار السريع جدًّا، أحد مفاخر فرنسا المعاصرة، الذي سوف يقطع المسافة بين باريس ومرسيليا (حواليَ ٨٠٠ كيلومتر) في أقل من ثلاث ساعات؛ المسافة نفسها التي يقطعها إكسبريس أسوان–القاهرة في ليلة بأكملها. عظيم!

قطارٌ سريع جدًّا، ركاب درجة أولى فاخرون، مناظر الريف الفرنسي تخلب الألباب، لا قُرًى هناك؛ فالأرض كثيرة وكبيرة، فلا حاجة للتكدس، وكل قطعة أرض يتوسَّطها منزل أمامه عربة (كارافان) للرحلات، وقاربٌ يُستعمل في العطلات، ولاندروفر وبيجو أو ستروان حسب الأحوال، الفلاحون في فرنسا أغنى بكثير جدًّا من سكان المدن. عظيم جدًّا!

أنا مدعوٌّ من وزارة العلاقات الثقافية الفرنسية لزيارة فرنسا والالتقاء بمن أشاء فيها. قابلتُ عشرات الكُتاب والمثقَّفين والناشرين والفنَّانين، ومعي مُرافقٌ من أظرف من عرفت، هوجو ديفيراند، أُمه إيطالية وأبوه فرنسي، ويُجيد سبع لغات، وهوايته التمثيل البانتوميمي الصامت، وفوق وجهه الذي ترتسم على صفحته باستمرار تعبيراتٌ إثر تعبيرات، تراجيديةٌ وكوميدية، مهرِّجةٌ مرةً ودراميةٌ مرةً أخرى، فهو يقوم بكل إجراءات السفر والإقامة والحجز؛ تلك التي تستهلك نصف متعة السفر. ليس عليَّ إلا أن أستلقي في «الفوتيل» المُريح، وأسرح أو أفكر، أو أسترجع أحداث ليلة افتتاح «الفرافير» في سكوبيا بيوجوسلافيا؛ تلك التي كنت فيها قبل مجيئي فرنسا، وأهضم على مهلٍ متعتي ككاتبٍ مسرحيٍّ مصري، ينفعل بروايته جمهورٌ غريب تمامًا على لغته وعلى حياته. عظيم جدًّا جدًّا!

ولكن الغريب أنه برغم أن كل شيء كان يدعوني للإحساس بالنشوة إلى الثمالة، فإني لم أُحِس بها أبدًا طوال ساعات السفر الثلاث؛ فقد كنت أفكر في مصر، أو بالأصح في المشكلة المصرية.

وكنت أفكر فيها بطريقةٍ جديدة تمامًا؛ إذ نحن قد تعوَّدنا أن نُناقش مشكلة مصر أو المصريين وكأنها شيءٌ غريبٌ مجرد، نتحدَّث عن مصر وكأنها شيءٌ آخر غير البلد الذي نعيش فيه ونملكه ومسئولون عنه، ونتحدَّث عن المصريين وكأنهم شعبٌ آخر، وعن مشاكل المصريين من تليفونات ومواصلات ومرور وعصبية وازدحام وانفجار سكاني، وكأن غيرنا هو الذي يُحدِث كل هذا ومسئول عنه. والمُضحِك تمامًا أن تجد مسئولًا كبيرًا في التليفونات يتكلَّم هو الآخر عن مشكلة التليفونات ويشكو منها وكأنها شيءٌ لا يمتُّ إليه، أو رئيسًا سابقًا لمرفق نقل أو مرور يتحدَّث عنهما وكأنها شيءٌ لا علاقة له بهما.

مصر هي أنا وأنت، والمشكلة المصرية هي مشكلتي ومشكلتك، فلنكفَّ الآن عن التعميم وعن التجريد، وعن الكلام عن بلادٍ أخرى وشعبٍ آخر، وكأن لا علاقة بينك وبينهما.

فما هي المشكلة المصرية بهذا المقياس؟

ما هي مشكلتك، وما هي مشكلتي؛ فمشكلتنا هي بالضبط المشكلة المصرية.

يبدو أن سرعة القطار الصاعقة، ودقة كل شيء، وانضباط كمسارية القطار ومُوظفيه ومُضيفاته، هي التي صنعت لي خلفيةً جديدة أُسقِط على صفحتها مصر التي «في خاطري وفي دمي»، وأرى ماذا حدث لنا بالضبط، ولماذا يحدث ما يحدث لنا، وهل لنا مكان في

الحاضر والمستقبل، أم أن المسألة المصرية حالةٌ ميئوس منها؛ فقد درَجْنا أن نقرأ لإخواننا الكُتاب والصحفيين والرحَّالة وصفًا للبلاد التي يزورونها، ولدقة المواعيد وانضباط كل شيء، ومقارنةً لا مَهرب منها بين ما يحدث هناك وما يحدث لنا وبنا وفينا هنا؛ مقارنةٌ ليست فقط مُجحفة، ولكنها قطعًا تدفع إلى اليأس الكامل المُطبِق.

ذلك أنهم يرون نصف الصورة فقط، ولا يرونها في كلها المُتكامل. والصورة في كلها المُتكامل ليست طائرات وكمبيوترات ومُنجَزات، الصورة الحقيقية هي إنسان؛ هذا القطار المَهول السريع فكَّر فيه إنسان، وابتكر أجزاءه إنسان، وركبه وصنعه إنسان، وثَم إنسان يُشغِّله؛ إنسان مثل عاملة البوفيه تلك، حيث ذهبنا أنا وهوجو نُمشِّي أرجُلنا، ونتناول قدَحَين من القهوة الفرنسية المشهورة، كان عدد المُلتفِّين حول البوفيه لا يقلُّ عن الثلاثين شخصًا، تُلبِّي طلباتِهم جميعًا فتاةٌ لم تكفَّ عن الابتسام طوال الرحلة، ولم تكُن ابتسامةً واحدةً ممطوطة ومُلصَقة فوق ملامحها كالقناع الزائف، كانت ابتسامةً مُتغيرةً حقيقية؛ فهي تختلف إذا وجَّهتها إلى شابٍّ في مثل سنها، عنها إذا أجابت بها طفلة أو عجوزًا، أو ضيفًا مثلي مُتعثِّر الفرنسية يطلب منها أن تتحدث في بطء ليستطيع مُتابعتها. ظللتُ واقفًا فترةً طويلة جدًّا أُراقبها كيف تُلبِّي طلبات الزبائن في لمح البصر، بحيث يفرغ البوفيه ويمتلئ والطلبات لا تتوقَّف، وكذلك سرعتها في الاستجابة، ثلاث ساعات خدمت فيها ما يقرب من الثلاثمائة مسافر، وابتسمت ثلاثمائة مرة، وضحكت عشرات المرات، وكان واضحًا تمامًا أنها سعيدة جدًّا بما تعمل. وهناك، حين أوشك البوفيه أن يفرغ، ولم يبقَ على مرسيليا إلا بضع عشرات من الكيلومترات، وقفت في جانب من البوفيه، وتناولت حقيبة يدها، وأخرجت علبة سجائر، تناولت واحدة منها وأشعلتها لأول مرة منذ أن بدأنا الرحلة. راقبتُها وهي تُدخن أيضًا. كان واضحًا أنها مُدخنةٌ عويصة، وأنا مُدخن أيضًا، ولكن لا تستطيع قوة في الوجود أن تُبقيني لمدة ثلاث ساعات بلا تدخين، أكانت متعتها في العمل إذن أكبر بكثير من متعة المُدخن بسيجارته؟!

لا بد أن لذلك قصة.

والقصة من صميم تراثنا الشعبي القصصي.

تبدأ بأن مرَّ رجل على نجَّار يعمل في الدور العاشر لإحدى العمارات الجديدة، وهو يُركِّب الشبابيك والواجهات، ويُغنِّي بصوتٍ مُنطلِقٍ جهور هو الذي استوقف الرجل، وجعله يتأمَّل ذلك الصنايعي المُندمج في عمله إلى حدِّ النشوة والغناء.

والقصة تقول إن الرجل المارَّ انتهز فرصة توقُّف النجَّار عن الغناء، وسأله: هي شغلة ولَّا خلو بال؟!

فألقى النجار عليه نظرة من عليائه، وقال له بثقة لا حد لها: شغلة طبعًا، أنا راجل صنايعي قد الدنيا. فتركه الرجل، وذهب إلى السوق، واشترى «سبَتًا» ملأه باللحم والخضار والفاكهة، وأعطى صبيًّا بضعة قروش، ووصف له بيت النجار ليُوصل السبَت إلى الزوجة قائلًا لها: إن الأسطى النجار هو الذي أرسله. وتمضي القصة تقول إن النجار عاد في المساء ليجد رائحة الطعام الشهي تملأ الشقة، وكمًّا ضخمًا من مختلف الفواكه يملأ سلةً فوق طرابيزة السفرة، فاندهش تمامًا، وسأل زوجته من أين لها بهذا كله. قالت: ألستَ أنت الذي أرسلته؟

– أنا لم أُرسِل شيئًا. من أين لك هذا؟

– منك. الولد جاءني ومعه السبت، وقال إنك أرسلته.

وهاج النجار وماج، وكانت ليلة ليلاء مليئة بالاستجواب والاستنكار والشجار.

وفي اليوم التالي تقول القصة: إن الرجل عاد إلى موقع العمارة، فوجد النجار في مكانه من الدور العاشر، هذا صحيح، ولكن كلما أمسك بإطار نافذة ليُركبها سقط منه الإطار وتدشدش، كلما حاول أن يدقَّ مسمارًا دق الشاكوش إصبعه، وبالطبع لا غناء ولا صوت يُلعلع.

– السلام عليكم.

قالها المارُّ، فنظر إليه النجار من عليائه، وقال له: هو أنت؟ ابعد عني.

فقال الرجل: لا أبعد عنك حتى تُخبرني: أهي صنعة أم خلو بال؟

فسبَّه النجار وأمره بالذهاب، فما كان من الرجل إلا أن قال له: أنا الذي أرسلت الولد بالسبَت إلى بيتك؛ لأُثبِت لك أن المسألة ليست صنعة، ولكنها خلو بال.

وهنا، وهنا فقط، وبعد أن تأكَّد النجار من أن الرجل هو الفاعل، وأن زوجته بريئة، عاد إليه انتظام عمله، وشيئًا فشيئًا بدأ يُتقنه، ثم في النهاية بدأ يُدندن بمَطلع موَّال.

إذن هو خلو البال، خلو بالي وبالك؛ تلك هي المشكلة المصرية. أبدًا ليست اقتصادية وإن كان الأزمة بعضها اقتصادي، وليست سياسية وإن كان بُعدٌ من أبعاد الأزمة سياسيًّا، وليست غلو أسعار وثراءً حرامًا، أو حلالًا يُقابله فقرٌ حرام، وأبدًا غير حلال.

المشكلة أن كل مصري باله غير خالٍ، والمشكلة أن المصريين ومنذ أن بدأ يحتلُّهم الهكسوس ثم الفُرس ثم الإغريق والرومان والعرب والمماليك والأتراك والفرنسيون والإنجليز والإسرائيليون، بالُهم غير رائق بالمرة.

ليس فقط بسبب ما يُحتِّمه الاحتلال وتعسفه، من ضرورة حشد الجهد للمقاومة والتخلص من المُحتل أو الغاشم، وإنما، وهذا هو الأهم، بسبب أن الوضع باستمرار، سواء أكان وضع مقاومة أو وضع استسلام، هو وضعٌ مُقلِق، لا يطمئنُّ فيه أحد على ما يمكن أن يحدُث غدًا، هو وضع عدم «خلو البال».

حتى إذا أخذنا تاريخنا القريب؛ فما يُسمَّى بحركة الازدهار السياسي والثقافي والوجودي في الستينيات، لم يكُن إلا مرحلةً قصيرة جدًّا من تاريخنا المعاصر بدأ فيها بال المصري يخلو من القلق على الغد؛ فبدأ يُنتِج ويطمح ويحلم ويُتقِن، ويُجهِّز نفسه لحكم على شاكلة النظام الناصري القائم آنذاك لفترةٍ طويلةٍ مُقبِلة، حيث أصبح جميع المصريين بشكل أو بآخر يعملون لدى الدولة، وحيث تكفَّلت الدولة بإعاشتهم وإسكانهم وتعليم أولادهم وعلاجهم من ناحيةٍ أخرى.

ولكن العالم لم يترك المصريين في حالة خلو البال تلك؛ ما لبث عدوان ٦٧ وهزيمته المُنكَرة أن أفاقت المصريين من خلو بالهم، وأصبح عليهم أن يُقلَق بالهم مرةً أخرى قلقًا بشعًا؛ فقد ثبت لهم أن النظام الذي ارتكنوا إليه وارتضوه ليس هو النظام الأمثل، وأن عليهم أن يُغيِّروا كل شيء مرةً أخرى.

ثم جاءت السبعينيات.

تحمل معها مفاجأةً مُذهِلةً ثانية؛ فقد فضَّت الدولة المصرية يدها من المسئوليات الاشتراكية المعيشية، وأشرفت سفينة القطاع العام على الغرق، وكان على كلٍّ أن ينجو بنفسه، وبعد اطمئنانٍ كامل للعمل العام وللتعليم العام وللصحة العامة وللضمان الاجتماعي العام، أصبح على كل واحد منا أن يُصارع أمواج البحر المفتوح الفم ليُنقذ نفسه وأولاده من الغرق اجتماعيًّا أو سياسيًّا أو اقتصاديًّا.

وحدث في مصر أغرب حدث؛ تجربةٌ رأسماليةٌ جديدةٌ مُنفتحة أكثر ممَّا يجب بكثير، عقِبَ تجربةٍ شبهِ اشتراكية مُنغلقة أكثر ممَّا يجب بكثير، مع أن المفروض أن يحدث العكس، وأن تأتي الاشتراكية بعد الرأسمالية؛ ولهذا كان طبيعيًّا أن تنشأ طبقةٌ رأسماليةٌ طفيلية تعتمد على اللارأسمال؛ النهب مرة، التهرب، التهريب، المُخدرات، القومسيونات،

استغلال النفوذ والوظيفة؛ رأسمالية في معظمها غير مُنتِجة، قسَّمت المجتمع بساطورٍ مُفاجئٍ هائل إلى مليونيرات وأناس بالكاد يحيَون.

كيف يتأتَّى للمصري أن ينعَم بخلو البال إذن؟

هو إذا كان غنيًّا إما أنه غنيٌّ بجهده وذكائه، وغيرُ مطمئنٍّ على ما يجيء به الغد، وخائفٌ أن تعود قصة التأميمات مرةً أخرى؛ وإما غنيٌّ بالفهلوة والسرقة، خائفٌ أن يأتي يوم الحساب ويوم السؤال العظيم: من أين لك هذا؟

وإذا لم يكن المصري غنيًّا وكان فقيرًا، فإن مسئوليته أن يعيش فقيرًا في مجتمعٍ يبيع له البيضة الواحدة باثنَي عشر قرشًا، وكيلو اللبن بسبعين قرشًا، مسئوليةٌ لا تشغل بال أي فقير، ولكن تُحِيل باله إلى جهنم. يوميةٌ مستمرة لا تُراوده فيها إلا فكرة البقاء يومًا بيوم. وحتى الحِرَفي الذي يكسب المئات، اليوم غير خالي البال أيضًا؛ إذ يشغله ألا تستمرَّ المئات في التدفق، وأن ينقطع السيل ويجد نفسه مرةً أخرى «على الحديدة». حتى من هو خارج مصر، يعمل ويكسب، يشغل بالَه فكرةُ ماذا سيحدث له غدًا؛ هل يعود بقروشه إلى مصر أم يتغرَّب وتتشتَّت أسرته، وتنحلُّ في النهاية وقد اقتُلعت جذورها من مجتمعها الطبيعي.

المثقَّف، أستاذ الجامعة، الطبيب، المحامي، باختصارٍ كلُّ من هو أنا، وكل من هو أنت، بالنا غير خالٍ.

وكل شعوب الدنيا وأناسها بالهم غير خالٍ؛ فلا يوجد مجتمع ولا إنسان خالٍ من الهموم والقلق والمشاكل.

ولكن الفرق أن بالنا غير خالٍ بمشكلةٍ هائلة، هي مشكلة وجودنا نفسه؛ على أي صورة سيكون؟ وليس وجودنا البعيد، إنما الوجود القريب جدًّا، غدًا أو العام المُقبِل أو الذي بعده. ليس هناك اطمئنان على المستقبل لدى أيٍّ منا.

تلك هي المشكلة المصرية في تبسيطها، وأيضًا في حقيقتها الشديدة الوضوح.

ويُخيَّل إليَّ أن جزءًا كبيرًا من تصريحات المسئولين التي تُحاول أن تنفي إشاعات التغيير المُتوقع في الاقتصاد أو الإدارة أو القطاع العام أو الدعم، سببها الأكبر محاولةٌ حقيقية لتطمين بال المصريين إلى المستقبل؛ حتى يعيشوا يومهم هذا، ويعملوا عمل اليوم الذي لا بد منه لكي يكون لنا مستقبل، بل حتى ليكون لنا حاضر، ولكن التصريحات — في أحيان — تُثير في النفوس القلق، مع أن القصد منها يكون هو التطمين.

وأمامي مثلٌ واضحٌ حي: هوجو ديفيران؛ ذلك الشاب الذي يعمل في وزارة العلاقات الثقافية الخارجية بـ «القطعة»؛ فهو ليس موظفًا ثابتًا بها، وإنما لأنه يُجيد اللغات الإنجليزية والإيطالية والإسبانية وغيرها يضعونه فقط على قائمة من يستعينون بهم من المُرافقين والمُترجمين. شابٌّ يرتدي بدلةً واحدة لم يُغيِّرها، وفي الشتاء ليس لديه مِعطف أيضًا، وإنما يكتفي بوضع كوفية حول رقبته. حدَّثني طويلًا عن الشقة الحجرة الجديدة التي استأجرها، وكيف أنه يطليها بنفسه. يقرأ جريدة الليبراسيون بنهَمٍ شديد، ولا يُطيق الموند أو الفيجارو أو الأومانيتيه. درس التمثيل البانتوميمي، ويعمل بالقطعة أيضًا في بعض المسارح؛ بمعنى لا عمل ثابت له. لا يُقِيم مع والدَيه (وهما من عائلةٍ أرستقراطيةٍ معروفة)، وإنما تركهما ليعيش بمفرده، ويصرف على نفسه. تزوَّج في سن العشرين، وطلَّق بعد عامَين، وهو يتحدَّث عن مُطلَّقته وكأنما يتحدَّث عن صديقٍ ودودٍ قديم.

لا دخل ثابت، ولا عمل ثابت، لا حياة ثابتة، ومع ذلك فهو مغرِّد دائمًا، مثقَّف جدًّا، حتى إنه ذكر لي أن تمثال الحرية المشهور في أمريكا أصله تمثالٌ فرنسيٌّ أصغر من فرنسا. وليؤكِّد لي هذا، أرسل لي منذ أسبو ع صورةَ تمثال الحرية الفرنسي.

برغم أن كل شيء يُشير ويؤكِّد أن هذا الشاب باله غير خالٍ أبدًا، وأنه حتى لا يضمن له عملًا أو حياة ربما خلال الأسبوع المُقبِل، فإنه كان يعمل معي بهمةٍ لا تعرف الكلل، وكأنه هو وزير العلاقات الثقافية المسئول، وكنت إذا سألته عن شيء ولم أجد لديه إجابة، في اليوم التالي أجد أنه قد عثر على الإجابة في كتابٍ مضى يقرؤه إلى ساعات الصباح الأولى. وأقصى نزوة تعنُّ له أن يدخل السينما، ما إن يجدني مشغولًا لبعض الوقت حتى ينسلَّ إلى أقرب سينما. وعمره ثلاثون عامًا، وباله رائق تمامًا.

وفتاة البوفيه التي هبطت معنا في محطة مرسيليا، وكانت قد انخرطت في الحديث مع هوجو، وكان علينا أن نبقى في المحطة لمدة ساعة ننتظر القطار الذاهب إلى أكس أن بروفانس مقر الجامعة الفرنسية العتيدة؛ هذه الفتاة أجريتُ معها حديثًا «صحفيًّا» واسطته هوجو، وإذا بها برغم الهمة الرهيبة والنشاط الباسم والسعادة الحقيقية التي ترتسم على مُحيَّاها وهي تعمل، ستعمل في ذلك القطار لمدة شهر واحد قادم فقط؛ إذ إن عقدها ينتهي حينذاك.

– وبعد هذا؟

– لا شيء، إني منذ الآن أبحث عن عملٍ آخر.

– كيف؟

– أقرأ إعلانات الوظائف، أسأل الأصدقاء، أكتب لبعض الجهات.
– وهل من إجابة؟
– لا جواب إلى الآن.
– متزوجة؟
– لا.
– مخطوبة؟
– لا.
– لك صديق؟
– نعم.
– ثابت؟
– لا.

وفجأةً وجدتني أسألها بفرنسيةٍ سريعةٍ صحيحة، وكأنما ادَّخر عقلي الباطن الجملة من حصيلة الفرنسية القديمة التي تعلَّمتُها في ثانوي وأهملتها: إذن لماذا كنت تعملين بكل تلك الهمة والسعادة، وأنت ستُغادرين شركة القطارات السريعة جدًّا بعد شهر؟

ابتسمت جدًّا، وهزَّت رأسها في سعادة إلى اليمين وإلى اليسار عدةَ مرات، وقالت بالإنجليزية: I Liked it. وكأن العمل، مجرد العمل، حبيبها.

وإذا كان ثَمة نموذجان يُجسِّدان عدم خلو الباب الشخصي، فهما هوجو وتلك الفتاة، وغيرهما ملايين، لا أحد في هذا العالم خالي البال تمامًا، ولا يمكن أن يوجد طالما هو إنسان.

إذن ما الفرق بين عدم خلو بالنا وعدم خلو بالهم؟

ولماذا يذهب كلٌّ منا للعمل وبوزه شبرين، ويعود وبوزه أربعة أشبار؟

لماذا يعمل كلٌّ منا وكأنه محكوم عليه بالعمل، حبذا لو فرَّ منه، أو أجَّله أو نام في أثنائه؟

الفرق الرئيسي الذي أدركتُه في تلك اللحظة وأنا جالسٌ أتثاءب في محطة مرسيليا مع هذا الشاب وتلك الفتاة، التي أسعدها تمامًا أن ندعوها لشراب وتُحادثنا بعد كل هذا الذي قاسته في رحلة القطار، الفرق أن عدم خلو بالهم هو عدم خلو بال فردي.

أما عدم خلو بالنا فهو عدم خلو بال جماعي.

وهذا شيءٌ مختلف تمامًا، وله حديثٌ آخر.

لماذا البال غير خالٍ؟

وهل معقولٌ أن يكون عدم خلو البال، حتى لو كان جماعيًّا، هو المسئول عمَّا نحن فيه الآن؟

وماذا يكون عدم خلو البال بجوار ما نُواجهه من مشاكلَ حادَّةٍ وصعوباتٍ حقيقية، وواقع لا بد أن نأخذ به قراراتٍ فوريةً وحاسمة؟

وعشرات الأسئلة ممكنٌ أن تُطرَح لتهوِّن من شأن هذه الكلمة البسيطة «عدم خلو البال»، باعتبار أن الإنسان في كل وقت وكل آن، وحين يريد، يستطيع أن يُخلي باله من كل شيء، ويُعيد عقله صافيًا مُستعدًّا للتفكير واتخاذ القرار.

ونحن في هذا مُخطئون أيما خطأ؛ فالترمومتر المخدوش أو المكسور لا يمكن أن يقيس الحرارة، والكمبيوتر إذا اختلَّ منه «نصف موصل» واحد يفقد قدرته على العمل، بل إن الكمبيوتر نفسه، وهو آلة، لا يمكن أن يعمل إلا في ظل درجة حرارة معيَّنة مكيَّفة، وهو خالٍ تمامًا من التلوث والغبار، فما بالك بالإنسان؟!

ذلك الإنسان الذي نسينا من كثرته وازدحامه في مصر، أنه كائنٌ حساس تمامًا مُرهَف جدًّا، يمُوج عقله في اللحظة الواحدة بعشرات وآلاف الخواطر الواعية وغير الواعية، ملايين الكهارب تتصل وتنفصل، والجزئيات تتكون وتؤدي دورها وتتغيَّر إلى جزئياتٍ أبسط.

إن «الأميبا» أو الكائن ذا الخليَّة الواحدة، يُحِس الضوء وينجذب للطعام وينقسم ويتوالد، وفيه كمٌّ من الذرَّات والجزئيات بعدد وأبعاد النجوم والكواكب، والإنسان بلحمه وعضله وعظامه وجلده شبه الحي وأظافره يُحِس ويُدرِك، ويشحن كل ما يُدرِكه ببدائيته إلى العقل البشري؛ تلك الكلمة الجبَّارة من أرقى ما وصلت إليه الحياة في تطوُّرها، من

قدرة على الوعي بذاتها وبالمادة من حولها؛ المادة التي تعي بالمادة، وتؤثِّر على المادة، وتُشكِّل المادة، وتُحطم المادة إذا أرادت، وتُحطم حتى ذرَّاتها.

هذا الإنسان.

وكلنا ذلك الإنسان.

كيف يعمل؟

كيف يحسبها ويختار؟

كيف يتخذ القرار؟

لا أريد أن أدخل في تفاصيل علمية كثيرة تهمُّ المُتخصصين ويطول شرحها، ولكن لا بد أننا كلنا نتفق على أن هذا الصقل البشري لا يمكن أن يعمل بكفاءة وهو محموم مثلًا، أو مسمَّم، أو لا يصل إليه غذاء أو أكسجين كافٍ.

وكذلك أيضًا لا يمكن أن يعمل ويفكر في حل معادلة رياضية وهو في حالة رعب، بل حتى القلق يُخمد كل قُوى العقل، ويُربِك الكهارب والشحنات، ويُبلبِل الإنسان تمامًا.

وما عدم خلو البال سوى حالة من القلق.

والقلق ليس أبدًا شيئًا مرضيًّا، على الأقل في جرعاته القليلة؛ إذ هو الذي يُحفز الكائن البشري، ويستفزُّ قُواه العقلية ويُنبهها، ويدفعها لإعمال الفكر وإيجاد الحلول.

ذلك هو القلق الخلَّاق.

أما إذا زادت جرعة القلق، فالنقيض تمامًا يحدُث؛ تبدأ قدرات العقل تقلُّ، وسُلَّم النضوج البشري يتناقص، حتى يستحيل الإنسان في النهاية إلى طفل أو ما يُشبِه الطفل، يطلب العون ممَّن يتصوَّر أنه أبوه أو أخوه أو أمه.

فإذا استغاث هذا الطفل الفعلي بالعقول من حوله، متصوِّرًا أنها عقولٌ كبار باستطاعتها نَجْدته، ووجد أن من يستغيث بهم أطفالٌ مثله، أو بالأصح عقول كعقله، وأنها هي الأخرى قلِقةٌ ذلك القلق غير الخلَّاق، القلق المُحبِط المُظلِم، فإن خوفه يتحوَّل حينذاك إلى رعب، و«جبتك يا عبد المُعين تِعنِّي لقيتك يا عبد المُعين تِنعان»، تتحوَّل من موقفٍ سافر إلى وقفة «تولُّه» أو شلل لإرادة، وتنتفي تمامًا القدرة على إعمال الفكر أو أخذ القرار.

أو هذا هو بالضبط ما يمكن أن نسمِّيه القلق الجماعي، أو عدم خلو البال الجماعي الذي قيل إننا نُعانيه، وهو مختلف عن القلق الفردي في غيرنا من المجتمعات الغنيَّة؛ ذلك أن الفرد هناك يقلق، ولكنه يُحِس بأن المجتمع مستقرٌّ من حوله، مطمئنٌّ تمامًا إلى أنه إذا

فقد الوظيفة فسيجد غيرها، وإذا فُصل عن عمله فمن الممكن أن يبدأ من جديد. المجتمع الغني الثابت الأول، حيث التيار البشري المنظَّم، الماضي قُدمًا إلى الأمام، يحملك ويدفع لك مرتَّبًا شبه كامل إذا تبطلَّت، ويوفِّر أمامك آلاف الفرص لتختار؛ ولهذا فأي مشكلة فردية تظلُّ فردية، ولا تصبح وباءً ينتشر كالحريق.

أما القلق الجماعي فيحدُث حين يفقد الفرد ثقته، ليس فقط في المجتمع، وإنما حتى في وجود الآخرين، مجرد وجودهم. في هذه الهرولة البشرية التي نحيا فيها، البطل هو من يظلُّ يُهرول، وسيِّئ الحظ هو من يسقط؛ فإذا سقط يسقط وحده، وربما داسته الأقدام.

بعد ركونٍ كامل إلى الدولة والمجتمع، عليك أنت اليوم وحدك أن تعيش وتظل حيًّا مهما عِلق في رقابك من مسئوليات، إن لم تقُم بها فلا تنتظر عونًا من أحد.

في جوٍّ كهذا يشيع عدم الاطمئنان الخطير، لم تعُد مُطمئنًّا أن ما تسمعه هو الحقيقة، ولا أن الوعد وعد وأنه سيُنفَّذ، ولا أن الكلام كلام «رجَّالة»، ولا أن الزميل زميل والصديق صديق، وكأن الكل أطفال مذعورون فقدوا الأمان.

ولنتوقَّفْ طويلًا عند كلمة الأمان.

إذ وكأنما بالعقل الباطن كان المسئولون في السنين الماضية وإلى الآن، يلجئون دائمًا لاستعمال كلمة «الأمن» بمعنى «الأمان» في الحقيقة، الأمن الغذائي، الأمن الصحي، الأمن الإسكاني ... وهكذا، وكأنما يريدون من المجتمع أن يهجع ويكفَّ بخياله أو تصرفاته عن الهرولة والذعر.

ولكن المشكلة أن العقول لا تهجع، والمجتمعات لا تسكن بمجرد استعمال الشعارات وترديدها.

الإنسان يهجع فقط ويطمئن حين «يُدرِك» بكل حواسه، وبكل ما يستطيع شحْذَه من قدرة على التفكير والخيال، أنه أمن فعلًا، حينذاك فقط تبدأ الحركة تعود إلى عاديتها في المجتمع، ويبدأ الإنسان يأكل بدل أن يأكل قلقًا، ويعيش الحياة بدل أن يقلق على الحياة، ويعمل عملًا مُنتِجًا بدل أن يقلق عملًا، وتكون النتيجة عملًا مُقلِقًا هو الآخر.

والسؤال الكبير هنا هو: لماذا اجتاحتنا هذه الموجة غير الطبيعية من القلق العام؟

هل لأن الحاضر مُقلِق؟

هذا ليس صحيحًا؛ فحاضرنا اليوم أحسن بكثير ممَّا كنَّاه بالأمس، برغم كل ما فيه من أزمات.

أبدًا نحن قلقون لأن الحاضر يدعو إلى القلق وإلى عدم خلو البال؛ فالقلق من الحاضر في حد ذاته ليس قلقًا خطيرًا، إنه قلقٌ وارد وجائز، القلق الخطير حقيقة هو القلق على المستقبل ومن المستقبل. المستقبل هو مشكلتنا المُقلِقة الدفينة التي نادرًا ما نتحدَّث عنها، أو بالأصح نتحدَّث عنها بأعراضٍ مغلوطة؛ فنحن نشكو من أزمة المواصلات مثلًا، ولكن لو كان لدينا اطمئنانٌ تام على أن الأزمة ستُحلُّ بعد عام أو حتى خمسة أعوام، لَمَا شكَونا، ولتحمَّلْنا، ولكن كيف نطمئن ونحن نرى الأزمة تزداد يوميًّا أمام أعيُننا؟ ونقرأ عن حل للمشكلة بإنشاء مصنع للسيارات يُنتِج ستين ألف سيارة كل عام، نتصوَّر شوارعنا وقد أُضيف إليها كل عام ستون ألف سيارة، فنكاد نفقد الأمل تمامًا في حل أزمة المرور أو المواصلات، وقِسْ على هذا بقية المشاكل التي نشكو منها؛ إذ الواقع أننا لا نشكو منها اليوم، ولكن شكوانا سببها أننا لا نرى لها حلًّا في المستقبل.

إذ المستقبل هو مشكلتنا التي لا نعي بها.

نحن في الحقيقة حين نشكو ممَّا يحدث الآن نعبِّر عن تخوُّفنا من المستقبل؛ فالحاضر لم يتجاوز بعدُ حدَّ الخطر، وبإمكاننا أن نحلَّ مشاكله، ولكن لكي نتفرَّغ لحل مشاكل الحاضر لا بد أن «يخلو بالنا»، وبالنا يخلو فقط حين نطمئنُّ إلى المستقبل؛ ذلك أن الذي لا نعرفه عن الإنسان هو أنه كائنٌ مستقبلي؛ إذ هو الكائن الوحيد على ظهر الأرض الذي يعرف أن هناك مستقبلًا، وأنه قادم لا محالة، وأنه لا بد أن يستعدَّ لهذا المستقبل بالعمل في الحاضر، وبمعنًى آخر لا بد أن يُحيل الحاضر لخدمة المستقبل. وفي هذا المجال أتذكَّر الآن كتاب أحمد بهاء الدين الخطير «أيام لها تاريخ»؛ ذلك أن الكتاب الذي تأثَّر به جيلنا كله، والذي يقول في مقدمته: إن الفرق بين الإنسان والفأر، هو أن الإنسان كائنٌ ذو ذاكرة مُختزنة، تختزن الخبرات التي تحصل عليها في احتكاكها بالحياة، وتُعيد استعمالها عند تكرار الخبرة أو خبرة مُشابهة، على حين أن الفأر لا يختزن أبدًا، والدليل أنه في كل مرة أُغلقت عليه المصيدة، والدليل أنه في كل مرة يرى باب مصيدة يدخلها. وكان أحمد بهاء الدين يريد أن ينبِّه في ذلك الحين (في الخمسينيات) إلى ضرورة أن نعرف تاريخنا، ونجترَّ خبراته لنستفيد بها في حل مشاكل الحاضر.

وباستطاعتي أن أقول هنا، دون خطأ كبير، إن الإنسان أيضًا كما له ذاكرة تترسَّب فيها وتتراكم خبرات الماضي، فإن له رُؤًى للمستقبل لا بد من وجودها أمام عينَيه، وتُشكِّل بالنسبة له محطة الوصول الذي عليه أن يقطع الفيافي والمسافات للوصول إليها.

لا بد من هذا؛ فالحياة سفر رحلة عبر الزمان، وربما أيضًا عبر المكان؛ رحلة لستُ أنا الذي سوف أسافر إليها وحدي دائمًا أبنائي وأحفادي من بعدي، ومن الضروري للمسافر، لكي يسافر، أن يكون عارفًا أو على شبه يقين بالهدف الذي يريد الوصول إليه، فهل نحن مُدرِكون لمحطة الوصول؟

ألدينا فكرة عن محطة المستقبل، أم نحن كالراكبين في قطار المُفاجآت؟

وقطار المفاجآت بالمناسبة كان دعابةً ظريفةً درجت عليها سكك حديد الحكومة المصرية (أيام لم تكُن هيئة طبعًا)، وفي شم النسيم بالذات (كل سنة وأنتم طيبون) يركب الركاب القطار، ولا يعرفون أي بلد يقصد، دمياط أو الإسكندرية أو بورسعيد أو مطروح، لا أحد يعرف مهما حاول، وكانت محطة الوصول تبقى سرًّا لدى السائق وحده حتى يُفاجئ بها الركاب، ويصنع ذلك السر والمفاجأة جزءًا من المتعة بهذا اليوم الجميل يوم شم النسيم. ولا أعرف لماذا كفَّت هيئة السكك الحديدية عن تلك المفاجآت الحلوة، إلا أن يكون بالها هو الآخر «غير خالٍ».

ولكن حتى قطار المفاجآت قطار مفاجآت سارَّة تنتظرنا، ونعرف ونُدرِك أننا سنسعد بها مهما كانت محطة الوصول.

ولكن، نركب قطار الحاضر، وبدلًا من أن يصل بنا إلى الإسكندرية حيث النسيم العليل، نجده قد أوصلنا إلى أسوان حيث درجة الحرارة فوق الأربعين؛ فتلك هي المفاجأة غير السارَّة حقًّا. وأن نركب قطارًا لا خوف إذا كان في نهايته متعة أم تعاسة، مسألة لا بد أن تُقلِق بال الركاب تمامًا، بحيث لا تجعل لهم لحظة «خلو بال» أو استمتاع بالرحلة أو بالمنظر أو بأي شيء.

المستقبل هو مشكلتنا ومبعث قلقنا والغيوم المُسدَلة فوق أعيُننا، وليس الحاضر أبدًا.

أو بالأدق ليس الحاضر إلا بمقدار ما يُغيِّم المستقبل ويُحيله إلى شيء غير ممكن التنبؤ به، وغير ممكن الاطمئنان إليه؛ ومن ثَم التفرغ لحل مشاكل الحاضر.

وإلى حديثٍ أعمق عن ذلك المستقبل.

فلنُصرحْ بتخوُّفاتنا من المستقبل

نعم، كما أن الإنسان كائن له تاريخ، فالإنسان كائن له مستقبل، وما الحاضر إلا الحلقة التي تربط الماضي بالمستقبل.

مجرد حلقة.

والمُتمعن في حاضرنا يجد أنه يحمل كل أعراض الحالة التي يمرُّ بها البشر حين لا يعودون مطمئنين إلى مستقبلهم.

تلك الدعاوي والنزعات التي تَهيب بالناس العودة إلى ما كان يفعله الآباء والأجداد، بل وحتى الفراعنة، والحديث عن حضارةٍ ذات سبعة آلاف عام.

هذه الالتفاتة الخلفية السلفية سببها الوحيد أنه لا شيء يبرق أمام أعيُننا المستقبلية ويخطفها، فيدفعنا إلى الركض ناحيتها بكل حماس واندفاع، والعمل من أجل الوصول إليها.

هذه الدعاوي التي تبلغ في تطرُّفها حدَّ ألا ترى لنا مستقبلًا إلا في «الماضي»، أهي نزعاتٌ طبيعية؟ أبدًا، هذه ليست من طبيعة الإنسان؛ فالإنسان كائنٌ مدبِّر لأمور مستقبله مُدرِك له ولها، بل إن إسلامنا الحنيف يقولها بمنتهى الوضوح: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا. الدنيا هنا ليست فقط الحياة الدنيوية، ولكنها في صميمها أيضًا المستقبل.

وأن يصبح منتهى مستقبلنا أن نعود لماضينا، ليس إفلاسًا من الحاضر أو «تكفيرًا» له، وإنما هو في الحقيقة إفلاس من المستقبل، وتكفير لما هو آتٍ، وكأنما الآتي لا بد شرٌّ محتوم.

هذا الحنين الرهيب إلى ثورة عرابي والحزب الوطني، والوفد وسعد زغلول، وجمال عبد الناصر والسادات، وهو شيمة أناس «أفلسوا» من الحاضر والمستقبل معًا، ولم يعُد لهم من هم إلا البحث في «دفاترهم» القديمة. هذا السيل من الذكريات والمُذكرات، والتقليب

فيما هو قد كان وكأننا وصلنا إلى يوم الحساب، أمرٌ من الممكن فهمه أو هضمه لو كان يُصاحبه في الوقت نفسه حديث عن المستقبل، ولكن أن يكون كل حاضرنا هو حديث عن «الماضي»، فمعنى هذا أننا لا نرى في الحاضر بذور مستقبل لا بد من تدبُّر أمره، أو بمعنًى أدق لا نرى المستقبل بالمرة.

وأنا لا ألوم هؤلاء الناس أو تلك الدعاوي؛ فهذه كلها من أغراض غيام المستقبل، ونحن لا نستطيع أن نُدرك كُنْه المأزق الوجودي الذي يمرُّ به الإنسان إذا غام المستقبل إلا إذا أخذنا استشهاداتٍ ملموسةً من الواقع. هذا الشاب البورسعيدي الذي قتل النائب الثري صاحب عربات النقل، وناهيك بالدعاوي الحزبية والعقائدية التي حاولت أن تصوِّر الموقف من مُنطلَقٍ سياسي أو أخلاقي أو انفتاحي، المشكلة أن هذا الشاب في رأيي لم يعُد يرى له أو حتى للآخرين أي مستقبل، غام المستقبل أمامه تمامًا ولم يعُد يرى سوى الحاضر الواقع فقط، لم يعُد يرى سوى نفسه فقيرًا مُتعطلًا، وسوى ذلك الثري غنيًّا واسع الأبهة، أُغلقت أمامه الأبواب عن أن يرى له أي مستقبل، عن أن يرى أن بإمكانه أن يصير هو نفسه غنيًّا مثله، أو أن هناك طريقًا لذلك الغِنى، أصبح هو المجنيَّ عليه، وكأنهما مسجونان وحدهما في حاضرٍ رهيبٍ واقع، وليس أمامه أي «فعل» آخر إلا أن يقضي عليه.

مأزقٌ خطير حقًّا ذلك الذي يجد الإنسان فيه نفسه إذا غُمَّ عليه المستقبل. وأشِرْ إلى أي عابر في الشارع، أشِرْ إلى جارك أو نفسك، واسأله أو اسألها: ماذا أنت فاعل غدًا؟ ستجد كلامًا عائمًا تمامًا لا يقين فيه، وغالبًا ما ينتهي إلى التسليم المُطلَق بالعجز عن رواية المستقبل.

مأزقٌ وجوديٌّ خطيرٌ أن نجد أنفسنا سجناء الحاضر.

وأي حاضر؟!

إنه حاضرٌ انتقالي، مفروضٌ أن ينقلنا من الماضي إلى المستقبل، مفروضٌ أن نعرف فيه من أين بدأنا وإلى أين ننتهي غدًا.

ولكن، حتى البدايات قد غُمَّت علينا من فرط ما حبسنا أنفسنا في زنازين الحاضر.

من قائل: إن البداية الحديثة بالحملة الفرنسية وما صاحبها من صحوة.

من قائل: إن البداية بمحمد علي أو بثورة عرابي.

من قائل: إن البداية بثورة ٢٣ يوليو. من يعود يقول: لا، إن البداية قديمة منذ ثورة ١٩، وما ٢٣ يوليو إلا فاصلٌ إرهابي لا بد من وضعه بين قوسَين، والعودة مرةً أخرى إلى ما كنَّا فيه منذ ثلاثين عامًا.

فإذا سألته: وإذا عُدنا، لماذا كانت إذن تلك الأعوام الثلاثون من الثورة والعمل والكفاح والحروب والنكسات؟ أكانت هزلًا؟ أكانت وهمًا؟ أكانت مجرد حلم أو كابوس مُزعج علينا أن نستيقظ منه، ونعود إلى ما كنَّا فيه أيام الملك والإقطاع والرأسمالية الأجنبية المُتحكمة في كل خلية من خلايا المجتمع المصري؟!

يقولون: نعم، ما حدث كان انحرافًا عن مجرى تاريخ الشعب، ولا بد من العودة من حيث بدأنا لتصحيح ذلك الانحراف.

وكأن التاريخ خطٌّ معروفٌ مسجَّلٌ مُسبَق لدى جنابهم، والمقياس لانحرافه هو خروجه عن الخط الذي كان مفروضًا (في أذهانهم طبعًا) أن يسير عليهم.

وكأن التاريخ ليس تراكُم أحداث، تلقائية أحيانًا وإرادية أحيانًا، مُتفجرة أحيانًا ومُتئدة أحيانًا، ومن جماع تلك الأحداث — بعد حدوثها قطعًا — نظرة، يعرف إلى أي مجرى جرى التاريخ. فتاريخ الشعوب ليس له مجرًى محدَّد سلفًا، إنما هو الشعب ينحت مجراه ويصنع تاريخه؛ استجابةً لقُوى الحياة المستمرة الكائنة فيه، وبتكيف مع ظروفه مرة، وبالتمرد على تلك الظروف مرةً أخرى؛ بمعنًى أدق ليس هناك أي وسيلة اختُرعت إلى الآن لمعرفة مجرى التاريخ مُسبقًا وقبل حدوثه.

فإذا كانت البدايات — كما قلنا — نختلف عليها وبشدة، أفلا يكون الاختلاف حول المستقبل من التشتت بحيث لا يمكن أن نستبين له خطأً أو نورًا؟

وقد يبدو في كلماتي تناقضٌ بين قولي إن التنبؤ بالتاريخ مستحيل، أما النظرة إلى المستقبل وتحديده فواجب؛ إذ أليس المستقبل هو التاريخ القادم؟

لا، ليس المستقبل هو التاريخ القادم.

المستقبل هو الجزء النامي من الحاضر الكائن.

أي إنه موجود بشكل جنين في الحاضر كقمة النباتات النامية، وإدراكه لا يستدعي استقراء التاريخ بقدر ما يستدعي البحث عن أجنَّة المستقبل في بطن الحاضر.

وواضحٌ أننا لا نعرف نوع الجنين أو كُنْه القمة النامية في حاضرنا؛ تلك التي سيتشكَّل منها المستقبل.

بل نحن حتى لا نستطيع أن نقطع إن كان الحمل المستقبلي في حاضرنا حملًا حقيقيًّا أم هو مجرد انتفاخ وحمل كذاب.

هكذا بالماضي القريب وقد غُمَّت علينا بداياته واختلفنا تمامًا حولها، وبالمستقبل وقد تشتَّتنا في تخمينه، لا يبقى أمامنا سوى الحاضر الواقع، سوى الوجود وجهًا لوجه أمام

ذلك المأزق الرهيب، الذي دفع شابًّا في قمة شبابه وصحته أن يُصاب بالرعب من سجن الحاضر، إلى درجة قتل رفيقه في نفس زنزانة الحاضر.

وقد يردُّ أحدهم بقوله: ولكن ما حدث حالةٌ فردية، حالةُ شابٍّ يائس أو مجنون أو مُختبلة قُواه العقلية. وقد يكون هذا أو بعضه صحيحًا، ولكن فلنأتِ للعقلاء الذين هم أنت وأنا وجميع الذين لم يصلوا بعد إلى حد قرن الغزال للتعبير عن ذلك المأزق الرهيب.

إن كلًّا منَّا سواء كان شابًّا في الجامعة أو في المدرسة المتوسطة، سواء أكان أعزب أم صاحب أسرة، سواء أكان لديه مال أم كان خالي الوفاض، يمرُّ بنفس المأزق الوجودي، كل ما في الأمر أن المأزق لم يدفعه بعد إلى حمل واستعمال قرن الغزال أو تكوين العصابات، وإن كانت جماعاتٌ كثيرة قد تكوَّنت ورفعت السلاح وقتلت، وكان مقتل بعض الناس، وكان إزاحة بعض الأشخاص أو الأجهزة، هو الحل الأمثل لمشكلتنا مع الحاضر الواقع.

الحقيقة أني في محاولتي للكتابة عن هذا الموضوع الخطير، كنت أريد محاولةً متواضعةً لتشخيص ما نحن فيه، ليس لمجرد التشخيص من أجل العلاج، وإذا لم يكن من فائدة لدراسة الطب إلا أنها علَّمتني الأهمية القصوى للتشخيص الصحيح للمرض، تلك التي تُشكِّل ٩٠٪ من قطع مرحلة الشفاء، فإن خبرتي كمريضٍ هذه المرة هي التي دفعتني للقول في لحظة يأس: اللهم احمِني من أخطاء الأطباء في تشخيصي، أما المرض فأنا كفيل به. وإذا كنَّا نمرُّ بفترة ازدهار ديمقراطي وتعبيري تجعل كلًّا منا باستطاعته أن يُسهم باجتهاد، فرأى في حالتنا الراهنة وعدم خلو بالنا و«تولتنا»، أنها حالة خوف من المستقبل، بل الأصح تخوُّف بالغ من المستقبل، أو مستقبل «فوبيا»، مُتبدِّية بكل أعراضها وعلاماتها، واضحة جلية، كل ما في الأمر أنه ليس هناك طبيبٌ خارجي أو داخلي نستطيع أن نذهب إليه ونعرض عليه حالتنا، لن يصلح اقتصادَنا أي «شاخت» خارجي، ولن يُداوينا أي «كونجرس» أمريكي، نحن المرضى. ومن سخريات القدر في أحيانٍ أن يكون على نفس المريض أن يُدرِك — وهو في قمة مرضه — كُنْه مرضه، بل وأن يقوم هو بدور الطبيب لنفسه، يُشخص حالته ويُعالجها.

وهذا قدرنا، ولا مناص عن القيام به.

وما هذه المحاولة للتشخيص إلا جهدُ المُقلِّ المريض مثلنا جميعًا؛ فالخوف من المستقبل لم يعُد مجرد وباء جماعي يجتاح الآخرين، الخوف من المستقبل وصل إلى بيتِ كلٍّ منا شخصيًّا، وإلى عائلته، وإلى ذاته نفسها وعمله ومستقبله الشخصي.

حسنٌ إذن، ليكُن هذا هو مرضنا الجماعي الكبير.

فما الطريق إلى العلاج؟

ماذا نفعل؟

هل نستمر في حالة الارتباك الفكري القصوى تلك؟

أم نُدرِك أننا فعلًا مرضى التخوف من المستقبل، وأن نبدأ كأي مريض عليه أن يُعالَج؟ من رأيي أن نبدأ، وأن نفعل بالضبط مثل المريض الفردي حين تجتاحه حالة وهم أو ذُهان، ويذهب إلى طبيب أمراض نفسية.

إن أول ما يطلبه الطبيب هو أن يسأل المريض عمَّا يشكو منه.

ولكننا إذا فتحنا هذا الباب فقُل على العلاج السلام، فما أكثر الشكاوى التي ستنهمر من الأفواه، ولكننا إذا أدركنا أن شكاوانا أعراض وليست مرضًا، لواصَلنا الاستجواب وسألنا أنفسنا، بعد هذه المتاعب اليومية والأزمات وارتفاع الأسعار وقلة المعروض، بعد هذا كله، ما الذي يُخيفنا من المستقبل؟

وهنا لا بد أن نبدأ في أن نسمع؛ إذ الاستماع، مجرد الاستماع، هو أُولى الخطوات للعلاج.

لندع الناس، كل الناس، يتكلَّمون عن تخوُّفاتهم الشخصية والعامة من المستقبل، ويتكلَّمون بصوت عالٍ لكي يُحسُّوا أننا كلنا نسمعهم، وما دُمنا كلنا لا نستطيع الكلام في آنٍ واحد — كما نفعل الآن — وتكون النتيجة أن يُحاول كلٌّ منا أن يكون الأعلى صوتًا، أو الأعلى «كلاكسًا» بمعنًى أصح، فسندخل في حالة صراع وحشي من أجل فرض أصواتنا الشاكية. بدلًا من هذا، لنتبادل المنابر، ونتبادل أدوار المُتحدثين والسامعين؛ لنستمع إلى أخفت الأصوات همسًا، حتى التوهمات نستمع إليها. نستمع إلى الخائف من عودة التأميمات وفرض الحراسات وانتزاع الملكيات بالقوة، ولنستمع إلى الخائف من سيادة العقلية الانفتاحية الرأسمالية الجشعة، وابتلاعها لكل شيء، وضرورة أن يبدأ منذ الآن لكي يستعدَّ لها وينحرف ليمتلك شقة أو غرفة. لنستمع إلى الموظف اليائس من وضعه في الحكومة والقطاع العام، الذي يحلم صباح مساء بعمل في شركة استثمارية أو الهجرة أو عقد عمل في بلادٍ بترولية. لنستمع إلى مخاوف الحِرَفي وطالب التجارة المتوسطة وجندي الجيش الذي لا يعرف ماذا سيفعل بعد انتهاء فترة تجنيده. لنستمع إلى تخوفات المثقَّف من أن تسُود العقلية الثقافية المُنحطة التي ستطرد كفاءاته وقدراته، ولنستمع حتى إلى تخوفات تلك العقلية الخائفة على أوضاعها وكراسيها من أن تستردَّها الكفاءات، ولا يبقى لها ثَمة عمل أو قيمة.

لنطرح كل المخاوف المخبوءة في العقل المصري أمامنا وعلى الملأ، ولا نجعل منها محرَّمات، ولا نمنع أحدًا حتى من الخطأ في التعبير عن تلك المخاوف والهواجس.

فقط حين تتجمَّع لدينا كل تلك الكميات من المخاوف المسجَّلة في آراء وأقوال وحقائق، حينذاك فقط نستطيع أن نُفنِّدها ونُرتِّبها ونُناقشها، ونعرف زائفها من صحيحها، فإذا صنعنا هذا نكون قد وصلنا إلى ثلاثة أرباع حل مشكلتنا مع المستقبل؛ وبالتالي التفرغ لحل مشاكل الحاضر.

وليس هذا تبسيطًا مُخلًّا للأمور، إنما هو ثقةٌ تامة في قدرة العقل البشري على إيجاد الحلول لمشكلاته الحياتية والوجودية، فقط حين يعرفها ويطرحها أمامه ويتأمَّلها، أوتوماتيكيًّا تتولَّى أجهزة الحلول والابتكار المركَّبة في كل عقل فردي أو وعي، إيجاد العلاج فورًا، مثلها بالضبط مثل مشكلة أي ميكانيكي يُصلح سيارة، ستأخذ وقتًا طويلًا جدًّا ليكتشف الخلل، ولكن بمجرد اكتشافه يصبح إصلاحه أمرًا هينًا تمامًا.

ومعظم تحفُّظاتي على الانتخابات القادمة بالنسبة لفكرة القوائم، وضرورة تحزيب الشخص ليمكن انتخابه، فمن الواضح تمامًا أنها كانت البداية غير السليمة لأي علاج سليم لمشاكلنا؛ إذ خلال الانتخابات أعتقد أن نسبةً كبيرة جدًّا من مخاوف الإنسان المصري من المستقبل، ونسبةً كبيرة جدًّا من هواجسه، ستظهر على ألسنة واحد أو أكثر من الأحزاب الستة القائمة، أو أرجو هذا ومن العدد الكبير من المُستقلين الذين اضطروا للانضمام تحت لوائها.

إذ الانتخابات، في تجريدها النهائي، عملية تعبير هائلة تجتاح المجتمع، عمليةٌ يُعبر فيها الناس عن آرائهم واعتراضاتهم وإداناتهم وأيضًا تخوفاتهم.

ليس هذا فقط.

ولكن الأهم والأخطر أنها عملية لا يُعبر فيها المُواطنون عن تخوفاتهم فقط، ولكنهم وبأنفسهم وبإراداتهم يتولَّون المُساهمة في صنع المستقبل الذي يطمئنُّون إليه.

فما هو المستقبل الأمثل، أو على الأقل الحد الأدنى من المستقبل الواجب الذي نطمئنُّ إليه؟

ما العمل؟

السؤال إذن: ما هو الحد الأدنى من المستقبل الكفيل بطمأنتنا؟

أو بمعنًى آخر: ماذا نفعل للخروج من المأزق الواقع؟

أكتب لكم هذه الكلمات وأنا في زيارةٍ خاطفة للعراق، والحق أني منذ لحظة وصولي إلى بغداد وأنا مذهول حقًّا؛ فأنا كنت قد وطَّنت نفسي على أني ذاهب إلى بلاد لها أربع سنوات وهي تخوض حربًا ضروسًا متَّصِلة، ضد عدو له جيش كان يُعَد القوة العسكرية الخامسة في العالم. كنت أستعيد صور الحرب العالمية الثانية في الأفلام التي نراها ونقص الطعام والبطاقات والطوابير، و«أخلاق» الحرب التي تجتاح الرجال والنساء الذين لا يُحاربون. الشيء المُذهِل هو أني لم أجد العراق قد ظلَّت على حالها منذ آخر مرة زُرتها في عام ١٩٧٩م. وجدت بغداد أخرى جديدة؛ طرقًا، مباني، مؤسَّسات، فنادق، واحد منها فقط — ذلك الذي أُقيم فيه تكلَّف ٢٥٠ مليون دينار — وبُدئ فيه وانتُهي منه والحرب مُشتعلة وقائمة، وآخر افتُتح بالأمس، ويُعتبر واحدًا من أفخر فنادق العالم، واسمه بابل.

كانت بغداد عام ٧٩، إذا قُورِنت ببغداد التي أراها الآن، قريةً صغيرة، محدودة الطرقات، قليلة المباني الجديدة. وحضرت الجلسات الأخيرة لمهرجان الشعراء الشبان في العراق، وكان به مائة وعشرون شاعرًا شابًّا عراقيًّا كلهم دون الخامسة والعشرين من العمر، وشعرهم رائعٌ نابض بالفتوة والحياة، حتى إن رئيس المؤتمر شاعرٌ عمره اثنان وعشرون عامًا، والقائمون على كل المؤتمر عشرة شعراء شبان، كان تنظيمهم لاستقبال ما يزيد على المائتَين من الشعراء والنُّقاد والكُتاب، وكانت من أدق وأنجح المؤتمرات أو

المهرجانات التي حضرتها. حضرت احتفالًا للاتحاد النسائي بعيد ميلاد الرئيس صدام حسين، اشتركت فيه عشر فِرق للفنون الشعبية في أنحاء العراق، وستمائة فِرقة موسيقية، وعشرات الفِرق المسرحية للهُواة وللمُحترفين، استمعت لِفرق الغناء، وأثارتني تمامًا كلمات الأغاني، ونبضها الشعبي السريع القوي، وألحانها الجديدة تمامًا على الموسيقى العربية. وقالت رئيسة الاتحاد النسائي إن هناك أكثر من ألفَي أغنية نُظمت خلال الحرب عن الحرب وعن العراق.

هذا شعبٌ يُحارب، ومن بين كل خمس سيدات منه أو فتيات تجد واحدة على الأقل ترتدي السواد. إحداهن كانت تُغنِّي مع الفِرقة بزيِّها الأسود، وقيل لي إنها قد فقدت أربعة رجال من عائلتها. بناياتٌ جديدة بالمئات، آلاف الكيلومترات من الطُّرق الجديدة والأوتوسترادات. كنت قد وطَّنت نفسي — حتى لا أُصدَم — على عراقٍ كئيبٍ متَّشِح بسواد الموت والخراب والحرب، وإذا بي أجد عراقًا جديدًا كأنما من صُنعِ مردةٍ خرافيين، وكل هذا في بحر خمس سنوات وخلال أربعة أعوام منها شديدة الوطأة. في مكان الرجال والشبان الذين يُحاربون في الجبهة، زحفت المرأة والفتاة العراقية الجديدة تعمل من سائقة تاكسي وأتوبيس، إلى مُصورةٍ صحفية، إلى عاملة أسمنت مسلح. هي في كل مكان هنا، وبالزي العسكري أيضًا، حتى الشعراء بزي الحرب، وكأنما كان العراق ينتظر الحرب لدق بابه، فيستيقظ الشعب يُقاتل ويبني ويعمل بأقصى الطاقة وبالحماس، وقد دبَّ إلى الأطفال أنفسهم، الأطفال في التليفزيون يتحدثون شعرًا، النساء تبرَّعن بكل حُليهن للمعركة. قام العراق.

وأنا أعرف أن الحرب بَشِعة، وأتُّون يشتعل بنار الجحيم، ولكن الآن فقط أدرك حزني في كل مرة دخلنا فيها الحرب وأُوقف القتال بعد أيام أو بعد ساعات، كان شيءٌ حقيقي داخل نفسي يؤكد لي أن استمرار القتال سيصهر الشعب المصري، ويُظهِر كل مزاياه، وتتساقط منه كل عيوبه؛ فالشعوب الأصيلة يسقيها أتُّون الحرب كما يسقي الحديد، ويتحوَّل إلى صلب. ولا أعرف ماذا في الحرب يصنع هذا، ولكن الذي أعرفه جيدًا أن الحرب في جانب منها تُوحِّد الشعب، وتُوضِّح له الهدف ناصعًا شديد الإبهار. والشعوب إذا وجدت الهدف، فإن قُواها الخفية تنتفض كالمارد، وإنسانها يتحوَّل إلى عملاق.

ونعود إلى سؤالنا الأول: ما هو الحد الأدنى من المستقبل الكفيل بطمأنتنا، وإخراج ما تحتويه أعماقنا من قوةٍ مدخَّرة وعزمٍ شديد؟

والإجابة بسيطة إلى حدٍّ مُربك تمامًا، فلا بد أن نصنع لشعبنا هدفًا يسعى إليه.

هدفًا كبيرًا جدًّا، ونابعًا من رغبة شعبنا ذاته، وممتدًّا إلى أحلامه وطموحاته. إن اليابان حين اضطرَّت إلى إيقاف القتال بالقنبلة الذرية حوَّلت التحدي العسكري ضد أمريكا والغرب إلى تحدٍّ صناعي. تبارَزنا في الحرب، واستعمل العدو سلاحًا لا نستطيع قهره، فلنتبارز إذن علمًا وصناعة وتكنولوجيا.

وفي هذه المُبارزة هزمت اليابان الغرب في كل ميادينه، من ساعات سويسرا إلى أحواض صناعة السفن في هامبورج، من أفلام الكاميرات إلى المسجلات والفيديوهات؛ ذلك أن اليابان قد وضعت لها بعد الحرب هدفًا محدَّدًا: بريمم. كلمةٌ كنت أسمعها في كل مكان في اليابان حين زُرتها عام ٧١، لا بد أن تكون اليابان «الأولى» في كل شيء؛ عِلمها هو الأول، صناعتها هي الأولى، مُنتجاتها أول المُنتجات في الاستجابة إلى مُتطلبات الإنسان في كل مكان في الكرة الأرضية.

وبينما كانت الصناعات الأوروبية والأمريكية جامدة على حالها منذ الحرب وما قبلها، اكتشفت اليابان فكرة الخضوع لمزاج المُستهلك، واشترى رجلٌ ياباني حقَّ استعمال اختراع الترانزستور بعشرة آلاف دولار من مُكتشفيه البريطانيين؛ وبهذه الآلاف العشرة أنشأ شركة «سوني»، وحسبتها مرة فوجدت أن قريتنا وحدها واحدة من ملايين القُرى في العالم قد اشترت راديوهات ترانزستور بحواليَ خمسة آلاف جنيه في ذلك العام (عام ٧١).

ومن الصناعات الاستهلاكية قلبت اليابان برامج التصنيع في العالم؛ إذ خلت بعدها مرحلة الصناعات الخفيفة، ثم الصناعات نصف الثقيلة، ثم الثقيلة، وتكاد اليابان الآن تكون على رأس الدول في صناعة الصلب، برغم أنها تستورد جميع مكونات هذه الصناعة من خام الحديد إلى الفحم.

ولكن وراء هذا كله كان ثَمة هدفٌ كبيرٌ أن تكون اليابان هي الأولى.

ونحن أيضًا كنا رائعين حين كنا مُحدِّدين هدفنا القومي في الحصول على الاستقلال والحياد، وتبني القضية العربية، والدفاع عن هذا كله. من حضر منكم العمل في السد العالي، ورأى جيوش العمال كالنمل، البشر تضرب بأيديها الصخر وتشقُّه وتصنع السد وتُغير المجرى، من حضر أو من سمع يُدرِك حقيقة ما أعنيه؛ إذ كنَّا في ذلك الوقت قد جعلنا من بناء السد هدفًا شعبيًّا مصريًّا.

وصحيحٌ أننا الآن مشغولون بتدعيم تجربتنا الديمقراطية، ولكن الديمقراطية وسيلة لدستور حياة، ولا يمكن أن تُغنِي عن هدفٍ أسمى للحياة.

لا بد أن نجد لحياتنا هدفًا.

فلا يمكن أن يعيش الإنسان لمجرد أن يعيش ويتناسل؛ فخير منه في هذه الحالة الحيوان. الإنسان إنسان لأنه كائن يحيا وعيناه على المستقبل، على هدفٍ يعيش الحاضر ليُحققه غدًا، وإلا ضاع منه الحاضر والمستقبل أيضًا.

إني أتوقَّع لتجربة التعدد الحزبي نجاحًا كبيرًا في استتباب الحياة المصرية على أُسسٍ أرسخ بكثير ممَّا كنَّا فيه، بحيث نُطمئن الناس إلى أن كل شيء لن ينقلب تمامًا غدًا، ولكن ما أريد قوله أنه ليس بالاستتباب وحده يحيا الإنسان، وإنما بالاطمئنان القوي على المستقبل، والمستقبل يعني هدفًا ضخمًا على المستوى الجماعي للشعب يتفرَّع إلى أهداف على المستوى الفردي، بحيث يُرتِّب كل إنسان حياته وهي مُرتبطة بالهدف القومي العام.

فتعالَوا نُفتِّش معًا عمَّا نملك وعمَّا نستطيع.

إننا شعب من خيرة شعوب الأرض حضارةً وقدرة، وثروتنا الحقيقية هي إنساننا المصري، والمؤسف تمامًا أننا نفكر في الكثير من المشروعات والخطط، ولكننا لا نكاد نفكر في المشروع الأهم: الإنسان المصري.

إنني كثيرًا ما كنت أضحك وأنا أقرأ عن «إعادة بناء الإنسان المصري»، وكأنه كان منزلًا وقد تهدَّم. أبدًا، لم يتهدَّم الإنسان المصري ولن يتهدَّم مهما حاقت به من ظروف؛ فلقد عاش شعبنا المصري سنوات قحط كان يضطرُّ فيها إلى أكل القطط، وحتى إلى أكل بعضه بعضًا، واستمرَّ ولا يزال مستمرًّا.

نحن فقط في حاجة قصوى إلى جعل الإنسان المصري هدفنا كشعب، وأيضًا كأفراد. إن طاقتنا البشرية كثيفة العدد حقًّا، ولكنها طاقةٌ مُهدَرةٌ مُهمَلة. العمالة المصرية متروكة تمامًا للتلقائية وللجهد الفردي. لا يوجد تنظيمٌ واحد في مصر، كما هو في كوريا مثلًا، هو الذي يتولَّى التعاقد لتصدير العمال، وهو الذي يرعى المصريين في الخارج، ويُقيم لهم الروابط والنوادي والجاليات.

فتعليمنا تدهور إلى درجة لم يعُد يصلح معها إطلاقًا لهذا العصر الذي نحيا فيه.

إنهم في اليابان يُدرسون الترانزستور والكمبيوتر لطلاب المرحلة الابتدائية، في حين أننا حتى في قسم الكهرباء في كلية الهندسة لا نجعل الطالب يُوصل ترانزستورًا واحدًا. تعليمنا نظريٌّ محض، وأعدادٌ هائلة من الطلبة وأكثر صادراتنا البشرية المتصلة هم من أحسن مُدرسينا، في حين أننا أحوج ما نكون لهم.

فلنجعل من العلم والتعلم، من التدريب اليدوي والعقلي على المهارات، من الاهتمام بشبابنا وأطفالنا، وتعويضهم عن كثرة العدد بشدة الاهتمام بكل طفل من أطفالنا، وبكل شابَّة وشابٍّ من شبابنا.

فطاقتنا الشبابية، أي المستقبلية، مُهدَرة تمامًا، ومتروكة للقضاء والقدر. نعم.

لنجعل من الإنسان المصري هدفنا القومي الأول.

لينطلق الإنسان

أكتب هذه الكلمات والساعة الآن ثلاث دقائق بعد الخامسة من مساء الأحد، ولا بد أن صناديق الانتخابات قد أُغلقت الآن على صوت الشعب وقد قاله.

والحقيقة أنني بدلًا من أن أكتب في الأسبوع الماضي، كنت لأول مرة منذ زمن طال أسمع رأي الناس الذي يقولونه في السر والعلن. كنت أقرأ جرائدنا ومجلاتنا قومية ومؤيدة ومعارضة وأنتهي منها بسرعةٍ شديدة؛ فقد كان شغفي الأكبر أن أكفَّ عن القراءة والكتابة جميعًا، وأن أستمع لرأي الناس، هؤلاء الذين ظلوا طويلًا يقرءون ويسمعون ولا يستمع لهم أحد، اليوم هو اليوم الذي كان مفروضًا فيه أن نكفَّ عن القول وأن نتحوَّل، ولو مرة، إلى مُستمعين. فالانتخابات في النهاية هي المنبر الذي تصعده الجماهير مرةً كل خمس سنوات لتقول رأيها، وكم كان بودِّي أن أزور كل لجنة من الاثنين والعشرين ألف لجنة لأرى بنفسي وأسمع! كم كان بودِّي أن أضع أذني على قلب الشعب لأعرف في أي اتجاه يخفق!

ولكن قلب الشعب كان هادئًا تمامًا وواثقًا، لا غوغائية إلا بين المُتنافسين، ولا منشورات إلا الصحف الحافلة بتوجيهٍ أعلى ممَّا يجب، وكأننا، وسائل الإعلام أقصد، نُعامل الشعب معاملة الطفل الخائفين عليه أن ينزل إلى الشارع لأول مرة، نُمطِره بوابل من الإرشادات والنصائح؛ حذارِ من يمينك، حذارِ من يسارك، حذارِ أن يخطفك شيوعيٌّ أحمر، أو صاحب ماض أسود، حذارِ أن يُضللوك، حذارِ أن تسمع، حذارِ أن ترى، حذارِ أن تقول إلا ما نريدك قوله.

والشعب، ذلك العجوز تمامًا، المُحنَّك تمامًا، العارف دائمًا بالأمور، بكل الأمور، وحتى ببواطن الأمور، يضحك في كمه، ويُخرِج لسانه دون أن يُخرِجه، ويسخر من ناصحيه؛ فهو يعلم تمامًا أن نصائحهم ليست لوجه الله، وإنما هي لوجوههم فقط، واليوم الجميع

يترفَّقون به، ويُدللونه، و«يثقون» في قدرته «الخارقة» على حسن الاختيار، اختيارهم، والشعب سعيد تمامًا. فقد ذهبوا به كل مذهب، وقادوه إلى كوارث شتَّى، دون أن يأخذ أيهم رأيه، والآن وقد كلَّت حيلتهم لم يعُد أمامهم إلا أن يأتوه طالبين رأيه، ورأيه الآن مُودَع في أكثر من ٢٢ ألف صندوق. تُرى، ماذا تُخفي تلك الصناديق من مفاجآت؟ وماذا اختار الشعب؟ وإلى أي اتجاه ذهب؟

كنت في الأسابيع الماضية قد كتبتُ حول «خلو البال» المصري أو عدم خلوه، وانتهيت إلى أن العجز عن حل مشاكل الحاضر سببه التخوف من المستقبل واحتمالاته غير الواضحة، وكنت قد سافرت ومنذ أيام عُدت وما أغرب ما وجدت! لقد وجدت أن العملية الانتخابية أدَّت دورها تمامًا؛ إذ إن اشتراك الناس في اختيار مستقبلهم ونوع الحكم الذي يريدونه لخمس سنوات قادمة على الأقل، هذا الحق نفسه، حق الاختيار، كان بقدرة قادر قد كشف الغمة عن المستقبل. لم أكُن بعد قد فطنت إلى الحقيقة البسيطة التي تقول: إن المستقبل لا يمكن أن يصنع الناس، وإن المستقبل الحقيقي، المستقبل الوحيد الذي يطمئنُّ إليه الناس، هو المستقبل الذي يصنعونه بأيديهم، وإن الطريق الوحيد لهذا هو أن يقول الناس رأيهم في المستقبل عن طريق الانتخاب الحر المباشر.

وهكذا حين عُدت بعد غيبة أكثر من أسبوعين، كانت ثَمة معجزة قد حدثت، وبدلًا من الكورة، أصبح حديث الناس كل الناس حتى الأطفال عن السياسة. والحديث عن السياسة هو الحديث عن المستقبل؛ فهو ليس حديثًا مجردًا، ولكنه حديثٌ مقرون بالفعل والعمل، حديث الهدف منه اختيار المستقبل، واختيار لا يأتينا من الخارج ولا بالقوة أو بالإعدام، وإنما اختيار نصنعه نحن بأيدينا؛ أنا وأنت وهو بأيدينا.

فجأةً بعد عودتي، وجدت الوجوه قد بدأ يتسلَّل إليها بِشرٌ لا يراه إلا القادم فجأة، وكأنما استعاد المُواطن ثقته بنفسه بعدما أشبعناه كلامًا عن ضرورة إعادة بناء الإنسان المصري، وكأنما الإنسان المصري كان قد تهدَّم، ولقد تهدَّم بالانتخابات شيء، ولكنه ليس الإنسان المصري، إنما كل تلك الأوهام عن إعادة بنائه وإعادة صياغته، فمن يصوغ الإنسان في مصر؟ أهي النظريات والقوانين واللوائح واللجان والمؤتمرات، أم أن الإنسان المصري هو الذي يصوغ كل هذا، ويصوغه لأنه قادر وواثق وملء وجوده، لم تنتقص الأحداث الجسام من قدرته ذرة، ولم تنهدم منه خلية. كل ما في الأمر أن الإنسان المصري كان «ممنوعًا»، وأصبح اليوم ليس مباحًا فقط، ولكنه مطلوب، ورأيه يعتمد عليه حاضر مصر ومستقبلها.

كلمةٌ لا بد أن يذكُرها الإنسان هنا، نعم إنها إنجازٌ رائعٌ مجيد، تلك الانتخابات، وبالصورة مُطلَقة الحرية التي جرَت بها، سوف يُؤرَّخ بها عهد الرئيس مبارك، وسوف يذكُرها التاريخ لوزارة فؤاد محيي الدين وللوزير حسن أبو باشا. لقد وعدوا وأنجزوا الوعد، ولا شكر على واجب، إنما حقيقةٌ ناصعة تقول إن كانت مصر تمتُّ إلى العالم الثالث بإمكاناتها واقتصادها، فإنها فعلًا دولة من دول العالم الأول بإنسانها وديمقراطيتها.

ولا أستطيع أن أمنع نفسي هنا من أن نتذكَّر، ونحن في حضرة يوم عظيم من أيام مصر، أولئك الملايين من المصريين العاملين في الخارج؛ أربعة ملايين أو يزيدون من شباب مصر وخلاصتها وكهولها.

أربعة ملايين صوت انتخابي لم يُدلوا بآرائهم في مستقبل مصر. إنها الغمامة الوحيدة التي شابت هذا اليوم؛ فكل دول العالم الديمقراطية تُتيح لأفرادها المُقيمين في الخارج أن يُدلوا بأصواتهم في سفارتها، ولا أدري كيف غاب عنا هذا، برغم ضخامة حجم هذه الكتلة من الأصوات التي كان من الممكن أن تُغير حتى في نتيجة الانتخابات.

وليس هذا هو التقصير الوحيد منَّا تجاه أولادنا المُغتربين؛ ففي الدول الثلاث التي زُرتها (العراق والسويد وإنجلترا) قابلت المصرين هناك، مصريين تفخر أنت بالانتماء إليهم؛ فكلٌّ منهم قصة كفاح هائلة في سبيل أن يقف ويسافر وينحت الصخر ويعمل.

في الجبهة العراقية-الإيرانية، وأنا أُحدق بالِمنظار من موقعٍ عراقيٍّ متقدم في بلدة «قصر مشيرين» الإيرانية التي احتلها العراقيون في أول الحرب، ثم جلوا عنها ليُقدِّموا صكَّ حسن النية من أجل السلام، سألت قائد فِرقة أو «فيلق» اليرموك المسئول عن الجبهة الوسطى: هل هناك مصريون مُتطوعون في الجيش العراقي؟ فقال: نعم، هناك عدة قواطع (أي كتائب) مصرية في الجيش الشعبي، هناك قاطع بِاسم بورسعيد، وقاطع باسم ٢٣ يوليو، وهناك مصريون أيضًا في قاطع الشعوب العربية.

وطلبت منه أن ألتقي ببعض المُتطوعين المصريين، فوعدني بأن ألقاهم حين نعود إلى القيادة، وأنا جالس بعد يوم حافل من الزيارة الميدانية دخل حجرة الانتظار بالقيادة أربعة نمور بملابس الميدان الكاملة، أدَّوا التحية بقوة. كان منظرهم مَهولًا فعلًا. أولادٌ شاربون من لبن أمهاتهم فعلًا. كان أحدهم يعمل مديرًا وتطوَّع، والآخر مُقاول بناء وصاحب شركة بناء، أسَّسها في العراق وأغلقها وتطوَّع، والآخران دبلوم صنايع وبكالوريوس تجارة.

وحديثٌ طويلٌ حافلٌ دار بيني وبينهم، كان أشد ما يُضايقهم فيه أن الناس تقول عنهم إنهم قد تطوَّعوا بسبب الرغبة في زيادة الدخل، في حين أن المُتطوع منهم لا يأخذ فوق مرتبه إلا دينارًا واحدًا يوميًّا كبدل. وسألني ذلك النمر القناوي المصري: وهل معقولٌ أن يُعرِّض الإنسان نفسه للموت من أجل ثلاثين دينارًا في الشهر؟

قلت: إذن لماذا تطوَّعت؟

قال لرد الجميل للعراقيين؛ فقد عاملونا في أثناء المقاطعة معاملةً لا نظير لها، بحيث حين كان يختلف المصري مع العراقي أو يتخانق معه، كان العراقي يُسجَن دون تحقيق، حتى إن بعض العراقيين كانوا يُسلطون بعض المصريين على أعدائهم ليشكُوهم فيُحبَسوا فورًا. حين دخل العراق الحرب ورأيناها حربًا عربية هدفها حماية العرب، تطوَّعنا لرد الجميل.

وقد يحسب البعض أنها كلماتٌ مُبالغة، ولكن فارقٌ كبير بين أن تقرأ هذه الكلمات مُدونةً بالمطبعة على ورق الجرائد، وبين أن تسمعها حية من فم قائلها صارخة بالصدق والحقيقة.

هؤلاء المصريون في العراق وفي دول الخليج وفي الأردن وفي ليبيا وكل دول أوروبا وأمريكا، بغض النظر عن وجود قنصلية مصرية أو عدم وجودها، نحن لا نُقدِّم لهم شيئًا، ولا نُنظم اتصالهم بمصر أو حتى نتبنَّى فكرة إنشاء نوادٍ أو جمعيات لهم، ونتركهم لجهودهم الذاتية. ولقد فُوجئت حقًّا بوجود جمعية للمصريين المُقيمين في السويد، وجمعية أخرى للمصريين المُقيمين والعاملين في جنوب فرنسا، والباقي متروكٌ أمره لتحكم الدول التي يوجد بها مصريون عاملون. وللأقدار إنني أرجو وأُلِحُّ أن ننشئ وزارةً كاملة للمُغتربين تنظم إرسال العمالة للخارج، وتتولَّى تدبير ورعاية شئونهم هناك، وتُنظم عملية اتصالهم بمصر الأم، والاستعانة بكفاءاتهم في مشاريعها وتحضر لعودتهم إليها.

وما كان أروع أن تُنظم — تلك الوزارة — عمليةَ أن يُدلي أربعة ملايين مصري بأصواتهم في انتخابٍ تاريخي كالذي حدث.

لقد طالبت بأن نتبنَّى نحن الذين سيُقدَّر لنا أن نحيا السنوات الرائعة المُقبِلة شعارًا ضخمًا كبيرًا يُضيء لنا الطريق. وما أحق أن يكون شعارنا: الإنسان المصري!

ليس إعادة بنائه؛ فهو مبني تمامًا وقوي وعظيم.

ولكن إزالة المعوِّقات التي تحُول دون انطلاقه وتُكبله، وتخنق فيه روح الإيجابية والانطلاق.

الإنسان قائم ويدعو للفخر.

ولكن المعوِّقات هي التي تدعو للسخط، فلنهدم المعوقات لينطلق الإنسان.

إذا كنا قادرين على العظمة فلماذا التفاهة؟

أخيرًا شاهدتُ في السينما المصرية عملًا يستحقُّ أن نتوقَّف عنده ونتوقَّف طويلًا؛ ذلك العمل هو فيلم «الكرنك»، متأخرًا كثيرًا أراه، هذا صحيح، ولكني من الناس الذين لا يحبون الازدحام حول الأشياء، ثم إن مشكلة «مشهد اغتصاب سعاد حسني» وكأنها كل ما في الفيلم، أو ما يستحقُّ أن يُشاهد في الفيلم، كسرت مقاديفي إلى حدٍّ بعيد. ذهبت، ودخلت وجلست، ومضيت حوالَي الساعتَين في شبه ذهول؛ ذلك أني وجدت نفسي أمام عمل رائع بكل ما تحمل الكلمة من معنًى، عمل أسخف ما فيه هو هذا المشهد المشهور، مشهد اغتصاب سعاد حسني، بل فنيًّا أضعف ما فيه.

فللكرنك الفيلم أبعادٌ أخرى أعمق وأمتع وأكثر أهمية بكثير. أقول الكرنك الفيلم لأن رأيي في الكرنك القصة مختلف تمامًا. واعذروني فإني سأضطرُّ للحديث عن قصةٍ كتبها زميلنا الكبير نجيب محفوظ سيد الرواية العربية، وهو الزميل في «أهرامنا» العزيز، ولكن ما ذنبي والأهرام قد أصبح يكاد يضم عائلة الكُتاب في مصر كلها، بحيث لا بد ستجد أنك في كل مرة تقرأ عملًا وتُواجه عملًا أن تنقده، إنما تواجه في الحقيقة زميلًا عزيزًا تضمك وإياه قهوة الصباح وحضن التحية؟ ثم إنه جرت في السنين الأخيرة في حقل الأدب تقاليد غريبة، أغربها بالتأكيد حكاية أن الكاتب لا يصح أن يتحدث عن «عمل» زميل له، باعتبار أنها مسألةٌ تخرق البروتوكول الكتابي غير المكتوب أو المعروف في أي مكان من سطح الأرض، وباعتبار أنها حكاية لا تصح ولا تجوز. لماذا؟ لا أعرف. في حين أن الحركة الفنية أو الأدبية كلٌّ مُتكامل، يشدُّ بعضها أَزْرَ بعض، ولعل من أحسن من يتعرَّض لنقد القصص هو من يكتبها، والمسرح لا يفهم ماذا ينقد منه ولا ماذا يُقال، إلا فعلًا من جرَّب وعانى وغاص في أعماق الخلق الدرامي. إنه نوع من النفاق الاجتماعي لا علاقة له البتة بالعلاقات الطيبة التي يجب أن تسود بين أفراد العائلة الكتابية، ثم من قال إن نقد أي

عمل معناه في النهاية انتقاده؟ ولماذا لا يكون النقد إظهارًا لأبعادٍ جمالية وقيمية فيه ربما تخفى على المُتفرج أو القارئ العادي؟

المهم — نعود إلى قصة الكرنك — حين صدرت وقرأتها في حينها، وجدت نفسي في حيرة. الحقيقة أني وجدتها شبه ريبورتاج صحفي أكثر منها حياة داخلية روائية عميقة عوَّدنا إياها نجيب محفوظ في معظم أعماله. وجدتها أشياء كالتي كان يكتبها شكسبير أحيانًا ليسدَّ خانة أو ليُحيي عيد ميلاد الملكة.

أو قل وجدت نفسي في حيرة لأني وضعت نفسي مكان نجيب محفوظ؛ ذلك الكاتب الذي يحيا قضايانا حتى ليكاد يحياها لحظة بلحظة، حياة المُنتمي المُلتزم الآخذ على عاتقه أن يقول دائمًا كلمته، يقولها فنًّا كبيرًا في أحيان و«كرنكًا» أحيانًا يقولها، ولكنه لا بد أن يقولها؛ من أجل هذا فأنا أعتبره من أعظم أبناء هذا الشعب قاطبة في كل تاريخه، أو أنه سيظل إلى أمدٍ بعيد. كذلك حيرتي حين وضعت نفسي مكانه هي حيرته حين جاءت ثورة ١٥ مايو، وانكشف الغطاء «لأولئك الذين لم يكونوا يرون أو يعرفون» عن مآسي ما كان يحدث في السجون والمعتقلات. كان لا بد لكاتبٍ ملتزم مثل نجيب محفوظ أن يقول كلمته في هذه أيضًا، لم يُجبره أحد، ولا هو قد سُجن أو عانى التجربة حقًّا، ولكنه ذلك الالتزام النابع من النفس، الفارض ذاته حتى ولو جاءت التجربة الفنية كالكلام المنقول عن شخصٍ ثالث، أو كالخبر المنشور في جريدة أو تحقيق. الحيرة هل يكتبها هكذا أم تبحث عن موضوعٍ عانيته فعلًا حتى ولو كان خارج أي معتقل أو مخابرات؟ اختار نجيب أن يكتبها، وأعتقد أنه تألَّم بعض الشيء لِما نالها على يد بعض النقاد، مثله مثل أي والد يستقبح جنينه.

ولكن — حين رأيت الكرنك الفيلم — انتهت حيرتي، وقلت:

حسنًا فعلت يا نجيب محفوظ، فلولا هذا الهيكل العظمي لرواية الكرنك، أو حتى الرواية التي كتبت وكأنها مشروع قصة سينمائية أو سيناريو، لولاه ما كان هذا العمل المُروع حقًّا؛ الكرنك الفيلم.

إن الكاميرا أخطر بكثير من القلم، والسينما هي حقًّا فن العصر. إن أثر الصورة يُحفر في النفس حفرًا، وتكاد الأظافر تمتدُّ من الشاشة إلى قلب المُشاهد تنهشه وتُحركه.

ولكننا كان عندنا ولا يزال سينما، ولكنها أبدًا لا تفعل هذا، إنها حتى لا تلمس فوق جلد المُتفرج، إنما يُحس بها الإنسان كنوع من الهاموش المؤذي الذي يتجمَّع حول أضواء الكاميرا، وبودِّ الإنسان أن يتناول في الحال علبة بيروسول ليُزيله.

الكرنك الفيلم، جاء في رأيي المُتواضع أكمل ملحمة سينمائية سياسية أفرزتها الحركة السينمائية المصرية منذ نشأتها، سيناريو متكامل حقًّا، ما أبرعه ممدوح الليثي هنا، وما أعمق لمسات صلاح جاهين حوارًا، ولو أنه كان من الممكن أن يكون أكثر عمقًا وتدبيرًا، إلا أنه أبدًا ليس رغيًا ولا أي كلام. الهيكل العظمي أمسى لحمًا، وسرت فيه دماءٌ حارَّة دافقة بحيث لم ألتقط أنفاسي للحظة، إنما هو الفيضان التعبيري مُتعاظم ومُكتسح. لا تمثيل، ما أراه هو الحقيقة الواقعة. لأول مرة لا أُحس بسعاد حسني جميلة؛ لأنها انتقلت من مرحلة الوجه الجميل المُعبر إلى المعايشة الكاملة للشخصية، تُنسينا تمامًا أنها سعاد حسني. هذا التعمق الخطير في الأداء لنور الشريف تخطَّى حدود الشخصيات السطحية التي كانوا يُعطونها له، وأوصلت أصابعنا نفسها إلى أعماقِ شابٍّ مصري مثقَّف عانى فعلًا مع غيره من المثقَّفين. والمثقفون ليس هم فقط الأفندية، إنهم طليعة الشعب بكل فئاته وعماله وفلاحيه، وهم الذين هبطت عليهم صاعقة الحفاظ على ثورة ٢٣ يوليو، وكأنهم لم يكونوا هم الحماية الحقيقية لها، وإنما كانوا هم لصوصها وقُطاع طُرقها. إذا كان إقطاعيٌّ واحد أو عشرة قد عُذبوا، ورأسماليون قد وُضعوا تحت الحراسة، فإن الكارثة الرهيبة هي الشلل الكامل للجهاز الفكري السياسي المصري ممثَّلًا في مثقَّفيه، من إخوان وشيوعيين وطليعة وفدية ومجرد حتى أفراده الواعين المعزولين، هنا جاء الضرب مُوجعًا ورهيبًا إلى حد الإفناء والتشويه والتوبة تمامًا من مهمة «التفكير»، ولا أقول العمل السياسي. لماذا؟ لا أعرف. لماذا تُعادي الثقافة والمثقَّفين في مجتمعٍ قامت فيه «ثورة»؟ لا أعرف أيضًا، ولكنه ما حدث، وما جسَّده الكرنك رهيبًا ومُوجعًا ودافعًا النفس إلى الصراخ من أعمق الأعماق. لماذا تُعادي ثورةٌ ما مثقَّفيها، والشعب بلا ثقافة كالجسد بلا عقل، أو بالأصح بلا قشرة عقلية تصنع له الوعي والبصر والبصيرة والضمير والإرادة؟ ومن هذه الضربات القاتلة نحن ما زلنا وسنظل إلى عهدٍ بعيد نُعاني؛ ولهذا فقد جاءتنا ١٥ مايو كاليد الممدودة تنتشل الغرقى والمجروحين والممزَّقين، جاءتنا كالبلسم يضمد جِراحًا عميقةً مُغورة، جِراحًا خطيرة؛ فهي جِراح في المخ ذاته، في العصب الحائر مع الثورة؛ هو يريدها ويحلم بها ويدعو لها، وهي لا تريده وتطحنه وتكويه؛ لكي يتوب أن يفكر أو ينفعل أو يُحس.

أما المُمثل الذي قام بدور المُعتقل الذي قُتل في السجن ضربًا، فللأسف أنا لا أعرف اسمه — واعذروا جهلي — ولكن إذا كنَّا أيها الناس نملك هذه العظمة، فلماذا التفاهة؟ لماذا سوسو وعفت مش عارف إيه، هلمَّ جرًّا؟ لماذا أفلام التفاهة ونحن باستطاعتنا

— وبقروش — أن نصنع أفلامًا عظيمة مثل الكرنك؟ لماذا وشويكار نفسها تستطيع أن تؤدي هذا الأداء العظيم الرائع تفعل شيئًا مثل فيفا ظلاطا؟

السؤال أن أعود إلى العقل المُدبر وراء هذا كله «الماسترمايند» وراء الكرنك العظيم؛ هذا النحيف الدقيق الحجم — علي بدرخان — الذي ما زلت لا أعرف كيف استطاع أن يُخرج من جوفه الفني العميق هذه الملحمة — أروع ملحمة — فيسكونتي السينما المصرية هذا أشد على يده العبقرية وأقول: والله خلَّف أحمد بدرخان، وخلَّف فنانًا أرجو أن يكون الكرنك — رغم روعته — مجرد البداية.

وأعود وأقول: إذا كنا قادرين على العظمة، فلماذا التفاهة أيها الناس؟

الجوع الآخر

لم أكُن أتصوَّر أن مُقتطَفًا من جملة، وربما تعبيرًا في حديثٍ عابر للصفحة الثقافية في «الأهرام»، أدليتُ به منذ ثلاثة أشهر أو تزيد، ولم يُنشر إلا من أسابيع، لم أكُن أتصوَّر أن يُثير كل هذه الضجة التي لا معنًى لها بالمرة في رأيي؛ إذ هي ضجَّة لا تمتُّ بصِلة إلى «صلب» الموضوع الذي طرقته؛ فالموضوع الأساسي كان حياتنا الثقافية كلها. ضجة أيقظت فيَّ الطبيب القديم، وجعلتني أجلس على مكتبي في صمتٍ طويل أحاول في أثنائه أن «أُشخص» هذه الحالة؛ هل هي صحية أولًا أم مرضية؟ فإذا كانت الأولى، فما هو وجه الصحة فيها؟ وإذا كانت الثانية، فما هو المرض الحقيقي؟!

والحق أن تفكيري لم يأخذ وقتًا طويلًا؛ فلقد وجدت أولًا أنها حقيقةٌ صحية، والصحة فيها أن طاقة العدوان أو الـ AGGRESSION، لا تزال موجودة وبكثرة لدى معظم الفنانين والكُتاب. وطاقة العدوان ليست هي طاقة التخريب أبدًا أو التحطيم؛ ذلك أنها تأخذ هذا الشكل في الحيوانات الدنيا، أما في الإنسان فباعتبارها هي الطاقة الزائدة؛ فهي التي تدفعه للتحرك والنشاط والخلق والابتكار، وبالتحديد يُقاس حجم الفنان أو موهبته بمقدار وقوة الطاقة العدوانية الزائدة عنده.

إذن نحن، كأفراد، أصحَّاء جدًّا، وعندنا بالتأكيد ما نقوله وما نستطيع فعله وخلقه وابتكاره.

ما هي المشكلة إذن؟

المشكلة هي في الجانب المرضي من الحالة، وهو أن هذه الطاقات الخلَّاقة لا يمكن أن تعمل إلا في ظل نظام أو مناخ أو ظروف تخلق لها المسارات الطبيعية الصحية،

فتتدفَّق هذه الطاقة بحيث تتحوَّل من «عواطف» و«طاقة» إلى «أعمال» بنَّاءة؛ أعمال تُغري الآخرين على العمل وإخراج ما لديهم من مخازن طاقاتهم.

ولأن هذا المناخ مُفتقَد، والطاقات الزائدة تغلي تريد الخروج، فنحن أيضًا — وهذا هو السيئ — في حالة جوع ثقافي عظيم يكاد يصل إلى مرحلة المجاعة الثقافية.

وقد يهز البعض رأسه ويقول: وهل ملأنا بطوننا حتى تجوع عقولنا؟! فأؤكد له أننا لن نملأ بطوننا حتى تمتلئ عقولنا؛ فالمخ الفارغ لا يُشبِع أبدًا بطنًا خاويًا، وبلدنا — كما قال لي فلاحٌ مصري من قريتنا ذات يوم — مصر مافيهاش فقر، مصر فيها قلة رأي.

وبالقطع كان قصده من قلة الرأي انعدام التفكير والتخطيط وإيجاد الحلول التي تُوفر مئات وآلاف وملايين الجنيهات. ولم أجد هذا الرأي ينطبق على شيءٍ قدر انطباقه على محاولاتنا لتنظيم المرور؛ فالمُضحك أننا كلما حاولنا أكثر ارتبك المرور أكثر. ولقد فوجئت وأنا في طريقي للمطار بأنني لا أستطيع الوصول إلى باب المغادرة؛ ذلك أن مهندسًا «عبقريًّا» خطَّط سلسلة من قصور التِّيه والشوار ع التي لا معنًى لها بالمرة تمنعك حتمًا من الوصول بسلاسة وسهولة إلى مكان السفر، وأيضًا تمنعك من الوصول إلى طريق المطار إذا عُدت، بل إنها لتُجبرك إجبارًا، كما لا يحدث في أي مطار في العالم، على أن تحمل حقائبك حتى لو كان سنك تسعين سنة، وتعبُر بها خمسين مترًا سيرًا على قدمك حتى تصل إلى مكان العربات أو الأتوبيسات.

إذن هذا المهندس العبقري جاء يُكحلها فعماها، وأزهقنا، وتوَّهنا، وبالمناسبة أضاع من ميزانيتنا المُتأزمة مليون جنيه على الأقل، خلق لنا أكبر أزمة مغادرة وأزمة وصول.

وهذا هو بالضبط ما حدث في مجال الثقافة.

كانت ثقافتنا بين الحربَين تسير في تؤدة، ولكنها فعلًا كانت تسبق الخُطا التي يسير بها مجتمعنا بمراحل، ثم جاءت فترة ما بعد الحرب، وبدأت جماهيرنا تغلي وتُنادي بالجلاء وبالثورة، وبدأت ثقافتنا تغلي هي الأخرى وتُفجر.

وجاءت الثورة، وتوقَّعنا مزيدًا من الانفتاح الثقافي والفكري، وفعلًا حدث هذا، ولكن الثقافة روحها شفَّافة كروح الفراشة، ومن السهل عليك بإصبعَين اثنتين أن تُزهق روح الفراشة الثقافة. وحدثت صدامات بين الثورة والمثقَّفين، ونُوقِشت المشكلة حتى هنا في «الأهرام»، ونُوقِشت بتطويل، ولكن دائمًا تبقى الفجوة كائنة وقائمة بين مفهوم الدولة — أية دولة — عن الفكر والفن والثقافة، وبين مفهوم المثقَّفين والفنانين والكُتاب عنها. كلٌّ يحلم بجمهوريته، وينقد جمهورية الدولة على أساس حلمه هذا، وحينذاك لا بد أن يقع

الخلاف، وتُمثل الحركة الثقافية والفكرية والفنية الجانب الأضعف، وفي النهاية ترضخ، وتتحوَّل الطاقة الزائدة العدوانية إلى الداخل تنهش الفنان، وتقتله في أحيان، كما حدث لشهيد حركتنا الثقافية نجيب سرور، وكما سيحدث لآخرين ربما أكون بينهم.

ولكن ما حدث في مجال الثقافة، والثقافة كلمة أصبحت من كثرة تكريه الناس فيها وفي القائمين عليها كلمةً ثقيلة على الأذن، مع أنها في رأيي هي الحياة، هي الموسيقى، هي الشعر، هي الذوق الجميل، هي كل ما يُحيل الإنسان المَعدة والغريزة إلى إنسانٍ أرقى وأعظم؛ أعظم استمتاعًا حتى بمَعدته وغرائزه.

ما حدث في مجال الثقافة خلق لدى الكُتاب والفنانين نوعًا من التحدي، حتى لكأن كلًّا منهم كان يريد أن يقوم بثورة ٢٣ يوليو أو ١٥ مايو خاصةً به، ولكن الفنان مهما تحدَّى فهو فرد، والدولة مهما تسامحت فهي أجهزة وموظفون، والذين اختيروا للإشراف على الأنشطة الفنية والثقافية كانوا في أغلب الأحيان موظفين لا يهمُّهم إلا الاختصاصات والمناصب، حتى إنهم قسَّموا الكُتاب والفنانين إلى يمينيين ويساريين، وعناصر هذه العقلية الوزارية لا تعرف أبدًا معنى أن يكون الإنسان فنانًا أو كاتبًا؛ إذ إن المعنى الوحيد الذي يُجبر الإنسان أن يجلس الأيام والليالي، أو يقضي عمره حبيس الحبر والقلم، أو الفرشاة والباليتة، معناه أنه إنسان — بطبعه وكما خلقه الله سبحانه — مُتمرد يريد أن يُغير في الناس ليُغيروا من أنفسهم، وقطعًا إلى الأحسن والأرفع، كما رفعوا الشعار مرة على مسرح توفيق الحكيم.

ولا يمكنك ومن المستحيل تمامًا أن «تُهجن» الكاتب الحقيقي أو تُحيله من مُتمرد إلى إنسانٍ مُستأنس، إنك حينئذٍ تكون قد قمت له بعمليةٍ جراحية استأصلت له فيها جزءه المُتمرد الخلَّاق، طاقته الزائدة، ارتكبت في الحقيقة جريمة قتل إنسان خلَّاق.

وكان الهدف من العقلية الوزارية هو «تأنيس» هذا التمرد، ومواجهة التحدي بالقوة العضلية والفصلية والتعسفية.

وفي النهاية نجحوا، نجحوا ليس في أن يستأنسوا الكُتاب، وإنما في أن يقرفوهم تمامًا؛ وبهذا تفكَّكت أجزاء حركة ثقافية مُتكاملة.

ولكن الأدهى من ذلك أن الحركة الثقافية لكي تكون حركةً ثقافية حقيقية، يجب أن تبيض كل يوم بيضةً ذهبية، وأن تخلق باستمرار أجيالًا جديدة شابَّة تطرب لتمردها

— حتى عليها هي نفسها خالقتها — تطرب وهي تراها تنمو وتضرب لها جذورًا وتزدهر. لقد أرسل لي كاتبٌ شابٌّ قصةً، وطلب مني في خطابٍ كله تحدٍّ وعجرفة أن أقرأها، وقرأت القصة وأعجبتني، ولكني رفضت الخطاب؛ ليس لأني بشرٌ أغضب أنا الآخر، ولكن لأنه طلب مني أن أنشرها له إن كنت حقًّا جادًّا في رعايتي للشبان، ولكني كاتب ولست ناشرًا، وليس لي أي منصب إشرافي أو نشري في الصحافة.

وبمناسبة الخطابات، الأستاذ سعيد سالم كاتبٌ روائي إسكندراني كتب روايةً جيدة جدًّا، وكان كريمًا وأهدى لي عمله هذا بحروف المطبعة على كتابه، وأضفى عليَّ من الصفحات ما خجلت منه حقًّا، ولكني سعدت به: «هذا عمل من أعمال الحب، أو كنت أظنه كذلك.» ولكنه بعدَ أسبوعٍ كتب لي خطابًا يطلب مني أن أُبدي رأيي في عمله، ولأنني لا أُبدي آرائي في أعمال أصدقائي الكُتاب الجُدد سرًّا أو في خطاباتٍ خاصة، فآراء الكاتب لا بد أن تُعلَن، فكَّرت فعلًا أن أكتب عن روايته، وهذا ليس شيئًا جديدًا؛ ففي روز اليوسف قدَّمت جيلًا بأكمله من كُتاب القصة القصيرة، وفي مجلة الكاتب قدَّمت الجيل الذي تلاه، وفي الأهرام هنا قدَّمت كُتابًا وكاتباتٍ جُددًا، ولكن الفكرة التي كنت أحبها كان موضوعها تفرضه عليَّ الظروف الآنية التي نحيا فيها جميعًا كمجتمع، وإبداء الرأي في روايةٍ يستلزم ظرفًا مناسبًا، ولكن الأستاذ سعيد سالم كان مُتعجلًا، وكتب لي خطابًا لم يُسعدني؛ لأنه سحب هدية الحب مني، وانقلب من النقيض إلى النقيض، ومن الصفات العظمى التي خصَّني بها إلى ما يُشبِه السباب؛ إذن الهدية كانت لهدف، ولم تكن علامة حب، وقد كان ممكنًا أن أكتب له خطابًا خاصًّا كما فعل الأستاذ نجيب محفوظ، ولكني لا أكتب خطاباتٍ خاصةً أبدًا.

إن لي أخًا مهندسًا في الكويت له خمس سنوات، كتبتُ له فيها خطابًا واحدًا وتحتَ ظرفٍ حادٍّ جدًّا؛ هو وفاة زوجته. لم أكُن أريد أن أروي هذه القصة، ولكن الأستاذ سعيد آثر أن يُدينني بها على صفحات الأهرام. والحقيقة حين قرأتها أحسست بأننا فعلًا، لا ككُتاب أو فنانين فقط وإنما كشعب، حدث له شيء، والطاقات الزائدة أو العدوانية لدى حتى المارَّة في الشارع أو راكبي المرسيدس، قد انطلقت كالرصاص الطائش بلا أي هدف سوى الانفجار، وربما في أقرب الناس إليك.

يا عزيزي سعيد، ستكون كاتبًا كبيرًا، ثِق من هذا، ولكن أخشى أن يجور طموحك على النبي فيك؛ فالنبي فينا هو الإنسان الأعظم ودون مقابل. ونعود إلى موضوعنا.

من الحقائق العلمية المعروفة أن الإنسان إذا جاع تألَّمت مَعدته تطلب الطعام، فإذا جاع وجاع وجاع سكنت الآلام شيئًا فشيئًا، حتى تنقضي تمامًا آلام الجوع وتسدَّ نفسه عن الطعام.

وأنا هنا لا أتحدَّث عن الحركة الثقافية، ولا المناخ المناسب للإبداع.

ولكني أتكلَّم عن جماهير القُراء عن جماهير الشعب. شعبنا أيها الناس في حالة مجاعة ثقافية هائلة، شعبنا يريد أن يعرف؛ فالمعرفة غريزة، والبرامج التي تُقدمها الإذاعة والتليفزيون وحتى الصحافة لا تفتح هذه النفس الغولة، «المصدودة» من كثرة ما انتظرت الطعام.

وفعلًا ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، كما قال المسيح — عليه السلام — إن طعام العقل لا يقلُّ أبدًا أهمية عن طعام الجسد. وإذا كانت الدولة تدفع إعانة دعم لرغيف الخبز بمئات الملايين من الجنيهات كل عام، فإنها تترك رغيفنا الثقافي دون أي دعم، أو حتى رعاية، بل إنها في النهاية أغلقت فرن وزارة الثقافة. وحسنًا فعلت، ولكن كان من المفروض أن تُلغي العقلية التي كانت سائدة في وزارة الثقافة وتخلق وزارةً أخرى، وزارة ثقافة خلَّاقة، وزارة ثقافة عملها أن ترعى، يُديرها المثقَّفون، وتُوضَع في أيديهم مفاتيح التنفيذ، عملها لا أن تختم الناس باليسارية واليمينية المُتطرفة، وإنما أن ترعى الناس جميعًا؛ إذ بهذه الطريقة نصبح «العائلة» التي نادى بها رئيس دولتنا. أما أن ندعم أرغفةً مائعة فلن يقربها القارئ الجائع؛ لأنه يريد كل ما هو حرَّاق فاتح للشهية.

ومرةً أخرى أعود وأقول إننا ونحن نُنادي بالانضباط، فالمفروض أولًا أن يكون انضباطًا نابعًا من النفس، سببه عقلٌ شبع ثقافيًّا وارتوى بالفن والمعرفة؛ إذ بغير هذا لن ننضبط، لن ننضبط وعقلنا جوعان، ووجداننا ظمآن، ظمآن.

التنظيم السرِّي للمرأة المصرية

أنا لم أعرف بعدُ سببًا واضحًا لهذا الظلام الذي كان ولا يزال. أهو ظلامٌ حقيقي، أم أن إغماض الأعيُن يجعلك تعتقد أن الدنيا ظلام؟ لا أعرف سببًا، ولكني عرفت وجرَّبت، وكلنا عرفنا وجرَّبنا كيف يتسلل النوم إلينا بحيث ننام دون أن نعي أننا نمنا، وبالذات حين يكون الراديو مفتوحًا، ويكون مُتحدثٌ واحد أو مُطربٌ واحد قد انفرد بالميكروفون لمدةٍ طويلة جدًّا أطول ممَّا يجب، بحيث يبدأ كلامه يفقد تضاريسه، ويستحيل إلى أصوات لا معنًى لها، ولكنها الروية المتصلة رغمًا عنك، تُخدر حواسَّك ثم وعيك ثم تنام.

ولكن الكارثة أننا فعلًا لم ننَم، ولسنا نائمين ولا مُغمًى علينا، ولا فقدنا الوعي. نحن شاهدنا ونُشاهد كل شيء، ورابنا كل شيء، ومارسنا كل شيء؛ نتحدَّث ونتزاوج ونكذب ونُصدق ونسرق ونتكاسل وننشط. ولم نفقد الوعي أبدًا، ولكني لا أعرف كيف أُصور هذا، وهل من الممكن أن ينام جزء في مخ الإنسان وتبقى بقية الأجزاء صاحية؟ لا بد أن شيئًا كهذا هو الذي حدث، ولا بد أن مركزًا هامًّا جدًّا من مراكز عقلنا العام قد تعطَّل عن العمل؛ نام أو نُوِّم أو خُدِّر أو اجتُث، وأن هذا هو السبب. ولا أعتقد أن أحدًا يعرف بالضبط ما هو ذلك الجزء، وما عمل ذلك المركز؛ ذلك لأن أحدًا من الخارج لا يمكن أن يُدركه، ولا يمكن أن نُدرك وجوده نحن إلا حين يبدأ يستيقظ ويبدأ يتحرك. كل هذه احتمالات، مجرد احتمالات؛ فنحن كما يحب دائمًا الصديق أحمد بهاء الدين أن يُشبه النملة حين تكون فوق ظهر الفيل، إنها حين تسير فوق ظهره أو ذيله لا يمكن تُدرك أنه فيل؛ أي تُدركه «كله». إننا إذن كلنا نتحسَّس طريقنا إلى الحقيقة، وإلى بالضبط كُنْه ما نحن فيه؛ إذ نحن لو عرفنا ما نحن فيه ولمسناه وأدركناه، لو عرفنا أنه فيل أو ذئب أو جثة إنسان، بمجرد إدراكنا لأبعاد الشيء وكُنهه ونوعه، تنحلُّ المشكلة.

لا نعرف بالضبط ما الذي نام فينا، ولكن لا شك أن إرادتنا ليست طبيعية بالمرة، والمفروض والطبيعي تمامًا أن الإنسان كائنٌ ذو إرادة؛ بمعنى أنه ينفرد بقدرته على التفكير المستقل، وتحديد هدف مستقل، والوصول إلى ذلك الهدف بقوة إرادته. بمعنًى آخر، الإنسان كائنٌ ذو «نية» تتحوَّل بقدرته إلى «فعل» بتحقيق وجوده. الإنسان السويُّ تستحيل النية عنده دائمًا إلى فعل يُحقق به نواياه، وهذا ما يجلب له السعادة والراحة والرضا عن النفس، والقلق والتعاسة تنتج عن بقاء «النية» أو «الرغبة» مجرد رغبة لا يمكن تحقيقها بـ «الفعل».

إذا حال حائلٌ بين الرغبة في عمل الشيء وبين تحقيق هذه الرغبة (أي الفعل)، يحدث للإنسان حالةٌ يُسمُّونها الإحباط، أو ذلك الشعور بالعجز الذي يُرهق النفس ويدمس الإنسان.

ونحن لن نُناقش التاريخ ولا الأسباب؛ لأننا نصبح حينذاك كالأطباء الذين يتركون المريض المُشرِف على حالة الموت ليُناقشوا الإهمال أو الخطأ الذي أدَّى إلى المرض، نُنقذ أنفسنا أولًا وبعد هذا أمامنا مئات السنين من المستقبل نُشبع أنفسنا فيها جدلًا ونقاشًا واختلافًا ومحاكمة أو تقديرًا ليس هذا وقته. الحالة الآن أن إنساننا في أزمة، لا نعرف كل أبعادها بعد، ولكن الذي لا شك فيه أنه مُحبَط أو غير قادر على الفعل.

في الحقيقة لولا أن أجهزتنا تعمل بطريقةٍ تلقائية أو بطريقة الدفع الذاتي، ولولا أن الروتين يأخذ مجراه، ولولا أن العاملين لا يزالون «يؤدون» عملهم، لتوقَّف الإنتاج تمامًا؛ ذلك أن الرغبة في العمل ليست صادرة من أعماقِ أيٍّ منا؛ أي رغبة إرادية في العمل، ولكنه واجبٌ يؤديه لكي يأكل ويشرب ويظل يعيش. نحن نُعاني بالتأكيد من حالة إحباط، المسافة بين «النية» عندنا وبين «الفعل» طويلة جدًّا، تكاد تنتهي بتأجيل الفعل تمامًا وإحالته إلى لا فعل. إرادتنا إذن أصابها شيءٌ رهيب؛ ربما من كثرة ما وُوجِهت به من عقبات، ربما لأننا لم نعُد بحاجة إليها لنعيش، ربما من قلة الاستعمال، ربما من كثرة الإرغام على عدم استعمالها لإرادةٍ مشلولة تمامًا ونحن نؤدي الحياة ولا «نفعلها». لا أحد منا يحيا كما يريد، بل إن رغبته في الإرادة نفسها، إرادة الأشياء والأهداف، فقدت بريقها. ربما الإرادة الوحيدة الباقية هي إرادة طلبة الثانوية العامة في الحصول على مجموع، بل إنها في معظم الأحيان ليست إرادةً خاصة نابعة من نفس الطالب وذاته، بقدر ما هي نابعة من إرادة أهله مثلًا.

وماذا عن النساء؟

وإذا كان هذا هو حال الرجل، أو النصف الرجالي من المجتمع، فماذا يا تُرى هو حال النصف الآخر، نصف المجتمع بأكمله؛ المرأة؟ إذا كان هذا هو حال الرجل الذي تُشكل الإرادة جزءًا لا يتجزَّأ من تكوينه، فبلا إرادةٍ يصبح الرجل ماذا؟ مجرد جسد؟ الرجل هو السعي الدائب إلى هدفٍ يُحققه؛ بمعنى أنك إذا رأيت كائنًا إنسانيًّا مُندفعًا إلى هدفٍ معيَّن يُحققه فهذه هي حالة «الرجولة». فليست الرجولة فحولة أو ذكورة أو شوارب، الرجولة حسم وإرادة وفعل. وليس معنى هذا أن المرأة كائن بلا هدف أو بلا طموح، إن للمرأة هدفًا طبيعيًّا خالدًا، ألا وهو إنتاج الحياة واستمرارها، وأي امرأة تخرج عن هذا الهدف الطبيعي، وترفض مثلًا أن تكون أمًّا، أو تكره إنتاج الأطفال، نعتبرها امرأةً غير طبيعية، أو بالأصح «مسترجلة»؛ أي تخلَّت عن طبيعة «الأنوثة»، واعتنقت طبيعة «الرجولة».

ولكن الحياة تعقَّدت وتشابكت، وأدركت المرأة أنها لكي تُحقق هدفها الخالد في استمرار الحياة، لكي يتحقَّق على وجه أكمل، فلا بد من مشاركة الرجل في تحسين هذه الحياة، والعمل على تطويرها. ومن هذا المُنطلَق تكوَّنت المجتمعات الحديثة بإرادةٍ مشتركة للرجل والمرأة معًا. بمعنًى آخر، أصبح للمرأة رأي في المسائل العامة؛ في اختيار الحكومة، في التمثيل البرلماني، بل أصبحت جزءًا لا يتجزَّأ من عملية الإنتاج نفسها، بحيث لو أضربت المرأة في أي مجتمع حديث لحدث شللٌ كبير، وتوقُّف أقسام كبيرة من أقسام الإنتاج.

ولكن، ماذا يحدُث لو أضربت المرأة المصرية عن العمل؟

بالقطع لن يحدث خلل ليس من الممكن علاجه في ساعات؛ ذلك أننا، برغم الأعداد الهائلة من النساء العاملات، وفي كافة المجالات، لا يزال إنتاجنا رجاليًّا تمامًا أو في معظمه. صحيحٌ أن الوقت سيجيء حالًا ذلك الذي تصبح فيه المرأة عامودًا أساسيًّا من أعمدة الإنتاج ستُجبرنا عليه الأزمة، ولكن الحادث إلى الآن أن زراعتنا وصناعتنا لا تزال رجاليةً أطفالية، وهناك في نهاية القائمة نسائية.

كان مفروضًا بعد ثورة السفور وثورة التعليم أن تنشأ ثورة الاستقلال؛ فهكذا الحال دائمًا في المُستعمَرات، لا يمكن أن تستقل مُستعمَرة وهي تعتمد اقتصاديًّا على مُستعمِرها.

ما دامت هناك تبعيةٌ اقتصادية فمن المُحتَّم أن تظل هناك تبعيةٌ سياسية. ولقد نشأنا مجتمعًا رجاليًّا تعتمد المرأة فيه كي تأكل وتلبس وتعيش على الرجل، تمامًا كشعب المُستعمَرة. والغريب أن المرأة تعلَّمت واشتغلت، ولكنها ظلَّت تعتمد اقتصاديًّا على الرجل. وأعرف والجميع يعرفون سيداتٍ كنَّ يعملن ولا زِلن، ولكن ماهيتهن تذهب إلى ملابسهن

أو زينتهن، ودخل الرجل هو الذي يعُول الأسرة. صحيحٌ أن هذا الوضع يتغير، ويتغير بسرعةٍ شديدة، ولكن لا يزال الوضع بشكلٍ عام هو وضع الاعتماد الاقتصادي شبه الكامل على الرجل. والمرأة في القرية تعمل وتفلح الأرض، ولكنها عمليًّا لا تستطيع أن تستقلَّ بزراعة أرض؛ فهي إذن عاملةٌ تابعة. والعاملة في المدينة والطبيبة في المستشفى والمُدرسة في المدرسة تعمل، ولكنها لا تستطيع أن تستقلَّ بحياة بمفردها، إنها «تُساهم» مع العائلة أو مع الزوج، ولكنها ليس لها حق «الاستقلال» التام عن الرجل.

هذا الوضع الاقتصادي استتبعته أوضاعٌ فكريةٌ بحتة، منها النظرة إلى المرأة باعتبارها «عيبًا» أو «عورة»، أو «حريمًا»، أو كائنًا ليس مُساويًا بالتأكيد لهذا الكائن الآخر المسمَّى بالرجل، بل استتبع هذا طبقاتٌ فكريةٌ كثيفة، ومحاولات للخروج على هذا الوضع والتمرد والثورة في الفناجيل، وروايات وقصص تشغل الخيال، وصراع غريب يقوم في نفس الفتاة أو المرأة التي أخرجوها إلى الشارع، وعلَّموها وأنَّثوها (بتشديد النون) وأعدُّوها، ولكن بقيت دائمًا وأبدًا مربوطة إلى الرجل.

كان مفروضًا إذن أن يستتبع التعليمُ حركةً نسائية واعية جماعية، هدفها انتزاع حقها في الاستقلال والمساواة؛ أي ثورة سياسية نسائية، ثورة استقلال لم تحدث. وأيضًا أنا هنا لا أناقش لماذا لم تحدُث، ولا موقف ثورة يوليو من المرأة، برغم أنها أول ثورة مصرية أعطت المرأة حق الانتخاب.

المهم أنه بينما انشغل مجتمع الرجال بالثورة وبالاستقلال وبالسياسة وبالأحداث الرهيبة المستمرة، على مسرح الوجود طيلة ذلك الوقت، حتى وهم مُحبَطون وبلا إرادة يهتمُّون ويُناقشون، وعلى الأقل يُتابعون، كان المجتمع النسائي لا ناقة له ولا جمل في هذا كله، لا أحد يأخذ رأيه للقيام بثورة، ولا أحد يأخذ رأيه لإصدار قانون.

وندخل الحرب ونخرج منها، وتقوم الأمة وتقعد، دون أن يأخذ أحدٌ رأي المرأة، أو يحفل بأن يأخذ ذلك الرأي. وليس معنى ذلك أن المرأة لم يكن أو ليس لها رأي، ولكن ما فائدة وما فاعلية وما جدوى رأي لا يسمع له أحد، ولا يأخذ به أحد، ولا يحفل به أحد؟ ساهمت المرأة أمًّا وزوجة وفتاة وعاملة وطبيبة ومُدرسة وصحفية ومُذيعة وطالبة وعالمة في حياتنا وأحداثنا مُساهمةً حقيقية هذا صحيح. بكَت وتألَّمت وجاهدت، ولكنها أبدًا لم «تصنع» هذه الأحداث، بل لم تُشارك في صنعها، إنما وجدت نفسها وسطها. إن هذا هو حال المرأة في معظم أجزاء العالم، حتى في بعض بلدان أوروبا نفسها، كل قادة العالم، كل نظرياته، كل حكوماته، كل تجارته وصناعته وزراعته، كل فنه وأدبه، كل علمه وموسيقاه، كل شيء تقريبًا، ما زال رجاليًّا.

وهكذا إذا كان الرجل نفسه مُحبَطًا أو مشلول الإرادة، فهناك أكثر من داعٍ وسبب لكي تكون المرأة أكثر إحباطًا؛ أي إن المسافة القائمة بين ما تريده المرأة وما تستطيع تحقيقه مسافةٌ طويلة جدًّا أو لا نهائية.

وهكذا أنا لا ألوم أحدًا بالذات حين أقول إن مجتمع المرأة، وعلى وجه التحديد مجتمع المرأة في الطبقات المتوسطة، وهي الطبقات الواضحة على المسرح الآن، قد انغلق على نفسه، أو بالأصح يكون للمرأة فيه اهتمامات مختلفة تمامًا عن اهتمامات الرجل، تقاليد مختلفة وقيم مختلفة ونماذج مختلفة للسلوك، ومجتمع أبرز ما فيه أنه رسميًّا وعلنًا غير موجود، وكأنه تنظيمٌ تلقائي سرِّي تتعارف فيه النساء والسيدات بسهولة وسرعة، ويتصادقن من أول دقيقة، له جرائده السرِّية ومنشتاته ومحطات إذاعاته وبطلاته وشهيراته. وعلى المستوى العلني اختفت البطلات العاملات والعالمات، وبدأ ظهور البطلات العوالم وأشباه العوالم وعُدنا القهقرى إلى العشرينيات، ولكن على مستوًى آخر، ليس ذلك المستوى المحدود في الكباريهات والصالات، وإنما المستوى الواسع في السينمات والتليفزيونات والإذاعات والمجلات وخلافه.

مجتمعٌ غير منطوق وغير مسموع نتعامى عنه، ونُنكر حدوثه أو حتى احتمال حدوثه. تُنكر أن الزواج أصبح في أحيان كثيرة وظيفة، وككل وظيفة ليس مهمًّا أن يعمل الإنسان فيها بقلبه وبكل إخلاصه؛ فما دام يؤدي واجباته الوظيفية فهو حر بعد هذا أن يُروح عن نفسه، ويرى الرئيس أو الزوج مرءوسته وهي ترتدي بأغلى ممَّا تقبض بكثير، ويُنكر أن شيئًا خارج الوظيفة أو البيت يحدث. مؤامرة صمت كبرى تُحيط بالموقف كله، واتفاق «جنتلمان» ألا ينطق أحد، لا ينطق رجل ولا تنطق امرأة، لا صوت يخرق الصمت. حتى حين علا صوت وضُبطت شبكة، سرعان ما سكتت الصرخة وكأن شيئًا لم يحدث، حتى بدأ الشك أننا سمعنا أصلًا أو أنها كانت صرخة، كانت وهمًا ربما، أو حلمًا مُزعجًا وجاء النهار وراح، وحين علا صوت وانكشفت المأساة عن الفتاة التي تسرق المجتمع؛ لأن المجتمع سرق منها العائلة والأم، أيضًا انتهى الأمر إلى فيلم سينما، وكأن السينما أصبحت بديلًا للحياة والحياة أصبحت سينما.

إني لا أريد هنا أيضًا أن أغوص أكثر وأكثر في أعماق المشكلة، أريد أن أعود إلى موضوعي؛ موضوع المرأة وثقافتها، بل حتى ثقافتها الثورية باعتبار أنها الطريقة الوحيدة للخلاص وليس التمرد الفردي، بل وليست القراءات العاطفية والقصصية. وهنا لا أستطيع إلا أن أتوقَّف؛ فمعظم الخطابات التي جاءتني تُحاول أن «تُبرر» موقف المرأة

من هذه المسألة، باعتبار أن الأعباء التي يُلقيها المجتمع الرجالي على أكتافها أعباء من الصعب معها أن تقرأ المرأة، أو حتى تستمتع بلذة أن تخلو إلى نفسها.

وهذا هو وجه العجب والمؤاخذة؛ فصحيحٌ أنه مجتمعٌ رجالي ظالم وصارخ الظلم، ولكن هل معنى هذا أن تترك المسائل كما هي، باعتبار أن ليس أروع مما كان، وأن لا حل هناك أمام المرأة المصرية إلا أن تظل تفعل ما تفعل، ونختلق لها الأعذار، ونُعاملها باعتبار أنها كائنٌ مَجني عليه، ولا سبيل إلا التعاطف الشديد معه؟

إني أرفض هذا، وكل مشكلتي أني تصوَّرت أن المرأة بعد خمسين أو ربما سبعين عامًا من بداية ثورة المرأة المصرية على وضعها، أصبحت أنضج من أن تُعامل ككائنٍ غير مسئول، كائن يستحق المُواساة والشفقة، كائن يستحق أن نُعامله كإنسانٍ ناضج بلغ مرحلة من النضج لا بد أن نُعامله معها باعتبار أنه مسئول، ولا بد أن يتحمَّل المسئولية، وأولها مسئولية أن يُحرر نفسه من ظلم الرجل — إذا رأى في معاملة الر جل له ظلمًا — أما أن يُلقي بمسئولية تحرير نفسه من ظلم الر جل و«مزاجه» على الرجل نفسه، فأعتقد أنه منتهى التخلِّي عن أبسط مكونات الكائن الإنساني الناضج المسئول.

أيتها المرأة، لن يُحررك التباكي والتشاكي والاتهامات المحمومة التي تُكال إلى الرجل، بل لن يُحررك ما أُحس أن الحال قد وصلت بك إليه، التشبع بالمشاكل والمُضايقات حتى الأنف.

وإنما سيُحررك شيءٌ آخر؛ أنت نفسك، ولا تسأليني كيف؛ فأنا أيضًا لا أزال لا أريد أن أُعاملك كطفل يتعلم كيف يدفع الظلم عن نفسه.

إني مع المرأة مع اعتباري جزءًا من العدو، ولكن هل هي متأكدة أنه كل العدو؟ هل هو هو حقيقة العدو، أم العدو أوضاعٌ أكبر بكثير من الرجل والمرأة معًا؟

أيتها المرأة المصرية، أنت ...

عزيزتي حواء مصر

المُتأنقة المُغندرة في شارع قصر النيل، راكبة العربة الملوَّنة الفارهة، والخارجة من مصنع نسيج (أيضًا بالباروكة أو البوستيج) المُطلة من عربة الشركة، أو المُندسَّة في التكدس الأتوبيسي اللحمي، المُنتظرة على محطة ترام، المزروعة أمام البوتاجاز تُعِد الطعام، الصارخة في طابور الجمعية، القائلة مع القائلات:

يا مآمنة للرجال يا مآمنة للمية في الغربال.

عزيزتي

هذا خطابٌ كل ما أرجوه إذا قرأته أولًا، أن يجعل كلامي خفيفًا عليك، وثانيًا أن تقرئيه؛ فالمشكلة — المشكلة الحقيقية — أني أعرف أنك — فيما عدا القلة النادرة — لن تقرئيه، بل أنت لا تقرئين شيئًا خلاف الموعد والشبكة في أحيان، أو حواء في أحيانٍ أخرى، أو في أندر النادر أركان المرأة والأزياء في الجرائد اليومية وآخر ساعة والمصور وصباح الخير. أنت قارئة إذن صعبة المِراس؛ لا لأنك عنيدة، ولكن لأن القراءة فيما يبدو واضحٌ أنها صنف من الطعام الثقيل على مَعدتك الرقيقة التي تطحن الزلط في أحيان.

المشكلة يا سيدتي ويا آنستي، يا خريجة الجامعة، ويا من يدوبك تفكِّين الخط، إن هذا الخطاب خاصٌّ بقراءات المرأة المصرية؛ تلك التي في حكم غير الموجودة، أو التي إن وجدت فهي كزهرة الصبار نادرة، ولا توجد إلا بشق الأنفس. المرأة المصرية — واسمحي لي — أقل امرأة تقرأ في العالم العربي. لقد كنت أظن أني كاتبٌ رجالي لا يقرؤه إلا الرجال، ولم أُحس أني أكتب للنساء وللرجال وللجنس البشري قاطبة إلا حين غادرت

محروستنا القاهرة، وسوَّحت في عواصمنا العربية هناك، ووجدت لأول مرة أن القراءة أغلبها للسيدات، وهنَّ العماد الرئيسي لتجار الكتب والناشرين، وهنَّ بالذات زبونات الشعر والقصة الأساسيات. ومناقشتهن لما يقرأن، خاصة إذا وقع الكاتب أو الشاعر في أيديهن وفي مرمى ألسنتهن «القصيرة!» مناقشاتٌ عميقة رهيبة بالغة الفصاحة والملاحة والنقد اللاذع. فقط حين أعود إلى القاهرة يئوب كل شيء إلى هدوء، وينتفي العنصر النسائي تمامًا من بين القارئات، ويعود هؤلاء القُراء الطيبون الرجال — الذين هم على قد الحال — يحتلُّون منصة القراءة. وقد كنت أظن أن جريدتنا التليدة الأهرام جريدةٌ رجالية محضة، تصدُر لـ «الرجال فقط» دون أن يُذكَر هذا على وجه الجريدة، ولكني في تجوالي بالبلاد العربية أدركت أنها للرجال فقط في مصر، على حين هي في خارج القاهرة للقارئات أولًا، ثم للقارئين، بل إن نظرة المرأة العربية لما يُكتب فيها أشد نفاذًا وأكثر غورًا ونقدًا.

ولست أعرف سببًا لهذا.

إني أعرف أن معظم جرائدنا ومجلاتنا يكتبها رجال للرجال، ولكني أعرف أيضًا أنه في السنوات الأخيرة اقتحمت ذلك العالمَ الرجالي فتياتٌ وسيدات كالصواريخ المُتحمسة، يتناولن الأقلام ويتناولن المشاكل، وبالذات النسائية والبناتية بكل ما يحتويه الجيل الجديد من صراحة وجرأة، ولكن أغلبية قُراء الكتب، وحتى الصحف والمجلات، لا يزالون من الرجال، ولا تزال القراءة عملية تكاد تكون رجاليةً محضة، وكأن المرأة إما أن تقتحم المجال كاتبة فقط، وإما ألا تقتحمه بالمرة، وهذا بالطبع مُلائم جدًّا لتركيب المرأة وطبعها؛ فهي إما أن تتكلم فقط، وإما لا تفعل شيئًا، أو تتحدث حديثًا جانبيًّا لامرأةٍ أخرى؛ هي إذن أسوأ مُستمعة؛ ولهذا فمن الطبيعي أن تكون أسوأ قارئة. وربما العيب ليس عيبها، ولكن عيب المادة المكتوبة؛ فالمادة المكتوبة غالبًا ما تكون سياسية أو اجتماعية أو عالمية، وهذه أصناف من القراءة ثقيلة جدًّا على مزاج القارئات الحساسات، في حين أن السياسة والاجتماع والعلم داخلة إلى الآذان في عالم المرأة، والمرأة التي لا تقرأ أحداث السياسة واتجاهات العالم لا تُفيق مثلًا إلا على ابن لها — لا قدر الله — يُفقد في الحرب الناتجة من هذه «السياسة»، أو اكتشاف من الاكتشافات العلمية أو الاجتماعية يقلب الحياة الزوجية (التي هي من صميم اختصاصات المرأة) رأسًا على عقب.

صحيح إذن أن المادة المكتوبة قد لا تُوافق مزاج المرأة المصرية، إنما السؤال هو: لماذا إذن تُوافق هذه المادة نفسها مزاج المرأة في أقطارٍ عربية أخرى، ويُقبِلن عليها،

ويعتبرن أن حتى السياسة أو العلم ليست شيئًا قاصرًا على الرجل، وإنما هو شيء لا بد أن تُتقنه المرأة الحديثة، وتُقبِل عليه إقبالها على مستحضرات التجميل والباروكات والماكسي والميني والبيكيني؟ أم أن الأمر عندنا أعجوبة الأعاجيب، تأخذ المرأة من العالم المُتحضر أزياءها فقط و«إكسسواراتها»، وترفض أهم إكسسوار؛ ذلك القابع تحت الباروكة؛ العقل، والثقافة، والمعرفة؟

عزيزتي حواء

قبل أن نُطالب بمنح المرأة حقوقها السياسية، بل وقبل أن نُنشئ تنظيمًا للمرأة، وقبل أن نتحمَّس لها ذلك الحماس الحقيقي أو حتى نتحمس ضدها، فلا بد أن تتحمس هي نفسها لنفسها، أو على الأقل لعقلها وثقافتها، وبمثل ما تُتقن التجمل إلى حدودٍ تعجز عنها أية امرأة في العالم، أفليس أولى بها أن تُتقن تجميل أعظم ما منحه الله لها؛ عقلها؟

وبمناسبة التنظيم النسائي، إن قلبي معه، وقلبي له، ولكن ضميري السياسي يمنعني أن أتحمَّس من أجله. لقد كنت أُوثِر أن تكون تنظيمات الاتحاد الاشتراكي للرجال والنساء وللفتيات وللشبان معًا، باعتبار أن المشاكل السياسية مشاكل تهمُّ الناس جميعًا، والأعمار جميعًا، والأجناس جميعًا. أما هذا التقسيم الطولي للأعضاء؛ شباب في ناحية، ومِهنيون في ناحية، وفلاحون في ناحية، وعمال في ناحية أخرى، فهو تقسيمٌ نقابي أكثر منه تقسيمٌ سياسي، ولكن هذا موضوعٌ آخر لنا له عودة. العودة الآن للمرأة المصرية وثقافتها، تعليمها مسألةٌ تخصُّنا جميعًا، وقد أرسيناها في مجتمعنا منذ مائة عام أو تزيد، أما ثقافتها فهي شيءٌ خاص بها. ووالله إني لأُحس بالحسرة حين أجلس في المترو في لندن أو باريس أو مدريد، وأُشاهد كل فتاة وكل سيدة مُنهمكة في قراءة كتاب أعمق الانهماك، فإذا شاهدت واحدة بغير كتاب أو مجلة أو ما يشغلها بالمرة غير التطلع فيمن حولها، خمَّنت على الفور أنها مصرية.

ودائمًا ما يكون تخميني صحيحًا.

إن الرجل المصري أيضًا أقل رجال العالم قراءة، والمرأة المصرية أقل مكونات مجتمعنا قراءة، ونحن للأسف نحيا في عالمٍ قارئ، عالم يلتهم الحروف والكلمات والآراء، عالم يلهث وراء المعرفة.

ونحن نلهث أيضًا، كل الفرق أننا نلهث وراء فراخ الجمعية.

لو وضعت الأسرة المصرية — وحين أقول الأسرة أعني المرأة — واحدًا على مائة من الزمن الذي تُنفقه لإعداد الطعام وتحبيشه، لتحبيش عقلها وعقول أولادها وبناتها، لَمَا أصبحنا على ما نحن عليه الآن؛ مجتمع بلا ثقافة وبلا نظام. فالمرأة أو الأم مدرسة، إذا أعددتها أعددت شعبًا مثقَّفًا نظيفًا منظَّمًا.

رب الأسرة الحقيقي

القرار الذي اتخذه الصديق الكبير يوسف السباعي لدى تولِّيه وزارة الإعلام، وهو جعل التليفزيون يُخصِّص ساعةً كاملة من وقت إرساله للأطفال، يبدو مجرد إجراء وزاري جديد، ولكنه في الحقيقة بحاجة لوقفة. إن المسألة في رأيي قد خرجت عن حدود التليفزيون كوسيلة تسلية أو ترفيه، وعن حدود الضرر الناشئ عن البرامج الغثَّة، وحتى في حدود ندرة البرامج الصالحة للأطفال. إني أعتقد عن إيمانٍ أن التليفزيون هو أخطر وسيلة اتصال ابتكرها الإنسان للآن؛ فهو لم يقف عند حد وظيفته كوسيلة اتصال أو ترفيه، وإنما أصبح هو المُربي الأول لكل أجيال جديدة قادمة. ذهب عصر تربية الأسرة إلى الأبد، ذهب عصر الأب المثل الأعلى القادر على التربية والتوجيه، ذهب عصر الأم حاملة التراث والحواديت ومُشعلة العاطفة والخيال. أولادنا الآن يُربيهم جيلهم وأصدقاؤهم، يُربيهم النادي والشارع والحارة، تُربيهم مدرَّجات كرة القدم، تُربيهم المسرحيات والأفلام، والذي يُربي هؤلاء جميعًا هو التليفزيون، هو المايسترو، هو الذي يُحدد ما يجب وما يصح وما يُقال ولا يُقال، هو الذي يُعلمهم هز الوسط أو هز العقول، هو الذي يُعلمهم العبط أو يُعلمهم الذكاء والفطنة، هو الذي يُعلمهم الشر والمطاوي، هو الذي يُعلمهم الخير والحكمة، هو الآن المدرسة الأم الأولى والمعهد الأب العالي.

ولا بد أن العاملين في التليفزيون والإذاعة يُوجعهم ذلك النقد الكثير الذي يُوجَّه دائمًا إلى البرامج، والتحفظات الكثيرة التي تُوضَع على المواد. وقد كان مفروضًا أن يتقبَّل هؤلاء العاملون هذا النقد بصدرٍ رحب؛ ذلك أنه الأصل في المسائل، وما دام التليفزيون قد حلَّ محلَّ الأم والأب والمُدرس، وما دام قد أصبح من المستحيل علينا أن ننتزع أبناءنا من أمام شاشته أو نُلغي وجوده، فهو موجود كحقيقة، وسيبقى موجودًا إلى ما شاء الله، ما دام الأمر هكذا فقد كان لا بد أن يكون لأولياء الأمور، لعقول الأمة وحكمائها، لمُدرسيها

ومُربيها، إشرافٌ ما على ما يُقدَّم وما لا يُقدَّم في التليفزيون؛ فليس التليفزيون مؤسسةً حكومية أو مستقلة، إنه أولًا وأساسًا مؤسسةٌ شعبيةٌ عملها يؤثِّر تأثيرًا خطيرًا ومباشرًا — أول ما يؤثِّر — على عقول النشء وتفكيرهم واتجاهاتهم؛ ولهذا فمن المحتَّم أن يكون للأسرة الصغرى والكبرى رأيٌ فيما يُقدَّم إلى أبنائها، ومن هنا تجيء كثرة النقد، ومن هنا تجيء الاستنكارات والصرخات.

تخصيص ساعة في اليوم للأطفال شيءٌ هائل إذن؛ فجمهور التليفزيون الأساسي هو من الأطفال إلى ما دون الخامسة عشرة، وكل رجائي ألا يقتصر الأمر على هذه الساعة وعلى الأطفال وحدهم، فمُشاهدو التليفزيون الأساسيون، أولئك الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة والسابعة عشرة، لا توجد لهم برامج مُطلقًا في التليفزيون، وعليهم إما أن يخفضوا من إدراكهم ويُشاهدوا برامج الأطفال، وإما أن يشرئبُّوا بأفهامهم ليصلوا إلى عُقَد الكبار ومشاكلهم. وأنا هنا لا أطالب ببرامج خاصة لهؤلاء أو حتى للأطفال، أنا هنا أطالب أن يُراعي هؤلاء الذين يضعون ويُخططون ويبتكرون البرامج أن جمهورهم الأساسي من هؤلاء، ولا بد من عينٍ تربوية واعية لما يُقدَّم؛ فالمادة ستُعرَض أمام عقول بالغة الحساسية سريعة الالتقاط والتأثر والمحاكاة، فهي مادةٌ قادمة من رب الأسرة الحقيقي؛ التليفزيون، فإذا كان رب البيت بالدف ضاربًا فمن المحتَّم أن يرقص أهل البيت، وهذا هو بالضبط ما ظل يحدث، وببشاعةٍ شديدة، في تليفزيوننا في خلال السنوات العشر الماضية.

والحمد لله أُحس أن هذا الضرب بالدف، وتلك الزغزغة، وذلك الإهدار المستمر لكل قيمة ولكل معنًى ولكل بطولة، قد توقَّف. وحين أجلس إلى التليفزيون الآن لا أُحس بالخجل من نفسي ومن أن هذا تليفزيون بلدي، وهذا كله حسن. لقد أوقفنا الوباء، وهذا جميل، ولكن ليس بالإيقاف وحده يتغذَّى الناس، المهم أن نُقدِّم الشيء الجديد الجميل المُفيد الآخر. وبصراحةٍ أقولها، إن هؤلاء الذين «يؤلفون» أو يبتكرون البرامج ويُقدمونها، في حاجةٍ ماسَّة إلى انتفاضةٍ تفكيرية وابتكاريةٍ طموحة، بل لا بد أن تصبَّ كل عناصر الخلق في بلدنا في قناة التليفزيون؛ فهو بحق وصدقٍ ممكنٌ أن يُميت روحنا ويُحييها، وبالذات أعز أجزاء روحنا؛ تلك البراعم الخضراء الجديدة، مصر الجديدة.

عالمٌ اختفى

شكرًا لنادي السينما في التليفزيون، لقد رأيت فيلمًا تدور أحداثه في الخمسينيات، وعجبتُ؛ عشرون عامًا فقط مضت، ولكنها تبدو كعشرين قرنًا من الزمان. أين ذهبت نظافة

الأنفُس؟ أين ذهب ذلك العالم المُسالم الجميل المُتمدين؟ من أين جاءنا كل ذلك العنف والدم والحقد؟ وأين كان يختبئ؟ لَكأني بذلك الفيلم كنت أُودع قرنًا كان فيه الإنسان إنسانًا أو قريبًا جدًّا من الإنسان، وأستقبل قرنًا أصبح فيه الإنسان حيوانًا أو قريبًا جدًّا من الحيوان، حتى الحب، الحب الحب، لم يعُد فيه حبًّا، وإنما صار عنفًا، وصار جنيًّا لا جنس فيه ولا إثارة، إنما إلى الاشمئزاز أقرب، حبًّا مليئًا بالحقد هو الآخر، وكأنما الحقد أصبح الشيطان المُسيطر الأعظم.

حسنًا! أيها العالم، أيها الفن، أيها الإنسان، إلى أين؟

من فوق أعلى ناطحة سحاب

من الصعب على الإنسان أن يبقى رأسه باردًا إذا حاول متابعة ما يدور في العالم اليوم بالراديو أو بالقراءة، إن الحُمى التي تجتاح العالم لا بد أن تنتقل إلى عقله، حتى ليصبح من الصعب تمامًا أن يُدرك الإنسان أين وجه الحق وأين خيط الحقيقة، وليُراقب المنظر العالمي من شرفةٍ عالية كائنة في مكانٍ ما من الكرة الأرضية. إن الاشتباك الحادث اليوم في كل مكان لا يكاد العقل يُصدقه؛ أنجولا فيها الحرب طاحنة بين الجبهة الماركسية والجبهة الوطنية المُرتبطة بالغرب، البرتغال نفسها فيها نفس الاشتباك حادًّا ومُلحًّا، إيطاليا الصراع بين الشيوعيين والمسيحيين الديمقراطيين، في السودان، في بنجلاديش، في آسيا، وفي الهند، وفي أمريكا اللاتينية نفسها. والمُضحِك أن يحدث انقلابٌ يميني في ليما العاصمة التي كانت تجتمع فيها دول عدم الانحياز وفي نفس وقت اجتماعها، وكأنما اليمين الأمريكي يريد أن يُعطي درسًا لأية دولة أمريكية جنوبية تُفكر في اللجوء إلى المعسكر الثالث.

وإذا كان هذا هو الحادث في العالم، فإننا لا بد أن نُلاحظ أن هذا الاشتباك الحاد بين «اليمين» و«اليسار»، أو بالأصح بين المعسكر الرأسمالي والمعسكر الاشتراكي، يتم في أثناء ومباشرة في أعقاب اجتماع هلسنكي الذي وضع الاتحاد السوفيتي فيه يده في يد أمريكا وأوروبا، وكأنهم اتفقوا على أن يتفقوا في أوروبا، ولكن لا يتفقون أبدًا في بلاد العالم الثالث؛ ذلك الحيز الواسع من الأرض والناس والثروات الذي يتنازع كل طرف للاستيلاء عليه؛ ولهذا فقد نُلاحظ مثلًا أن الموقف في إيطاليا قد انتهى بنوع من مشروع التعاون بين الحزب الشيوعي والحزب المسيحي، الشيء نفسه قارب الحدوث في البرتغال؛ أي إن الموقف في أوروبا «خارج اللعبة»، ويُستحسن ألا ينتصر فيه طرف على طرف، بينما الموقف في العالم الثالث مباح فيه تمامًا كل شيء؛ الطعن في الظهر والاغتيال، وذبح

مُجيب الرحمن، وسحب الكراسي من تحت يعقوب جون وغيره من الحكام الأفريقيين والأمريكيين الجنوبيين. ميدان صراع رهيب مُخيف، وحرب عصابات قائمة على قدم وساق بين جحافل الوطنية أو اليسار وجيوش اليمين، والعملاقَين الرهيبين، وأيديهما اليمنى تُصافح بعضها البعض في أوروبا، وأيديهما اليسرى في حالة توحُّش رهيب، تدفع وتطعن وتُغذي وتمدُّ وتُشنكل.

وإذا كان هذا الموقف في العالم فالموقف في بلادنا العربية، أو كما يقولون شرقنا الأوسط، قد وصل فيه الصراع إلى حدٍّ مُخيف. وهو ليس فقط صراعًا بين العسكريين، ولكنه أولًا وأساسًا صراعُ قُوًى وطنية تريد أن تتحرَّر، وإسرائيل التي تريد أن تسود. ويتصوَّر بعض الناس أن توقيع اتفاقية الفصل الثانية هي السبب في هذا الذي يحدث، ولكن الأسباب موجودة وكامنة منذ أمدٍ بعيد، وما الاتفاقية أو أي شيء غيرها إلا الوقود الجديد الذي أُضيفَ ليُؤجج نارًا كامنة ويجعلها تستمر. إن القتال الرهيب الدائر في لبنان مثلًا ليس سببه اتفاقية الفصل، إن له حقيقة الأسباب الموضوعية التي كانت قائمة في المجتمع اللبناني، وعلى رأسها ذلك النوع الغريب من الديمقراطية، ليست الموجَّهة، ولكن الموجَّهة طائفيًّا ولخدمة الوضع الطائفي، ولا شيء غيره. مفروضٌ أن الدول تقوم لتذوب روح القبلية والعشائرية والطائفية، وتجعل المُواطنين ينتمون إلى شكلٍ أرقى من أشكال الوجود، الوجود الوطني؛ تمهيدًا لوجودٍ آخر أكثر رقيًّا، وهو الوجود العالمي. أما أن تقوم الدولة لتثبيت دعائم القبلية والعشائرية والطائفية، فلا يمكن إلا أن يظل الوضع مُنذرًا بالانفجار في أية لحظة، وتظل الدولة مجردَ إطارٍ هشٍّ تمامًا ينهار لدى أي بادرة.

إن مشكلتنا نحن العرب أن أعداءنا يعرفون عن تكويننا وخلافاتنا ربما أضعاف ما نعرف نحن، ويؤجِّجون هذه الخلافات والاختلافات كما يحلو لهم، بل وليس أحب إلى قلب إسرائيل من أن تتأجَّج في مصر ذاتها روح النعرة المصرية لتُواجه النعرة الفلسطينية والسورية أو العراقية، وما تفعله بعض الجرائد «المصرية» وبعض الكتابات بدعوى المصرية، إنما يُوافق تمامًا الهوى الإسرائيلي والأهواء المُعادية الأخرى. والعرب كما قرأت في كتابٍ ثمين للمستشرق الأمريكي الدكتور وليم بولك، يُحبون فن «القول»، في جلساتهم في أحاديثهم في حكاياتهم، يبدءونها دائمًا ويُنهونها بفلانٍ «قال»، فأجابه الآخر «بقوله»، قال وقلنا وقالوا، كلام، الكلام الجميل، الكلام «الفاضل»، الكلام «الشعر». أما العمل فذلك ليس من شأن العرب. لا يهمُّ أن فلانًا «عمل» ما دام أنه «قال»، ولا يهمُّ أن يكون قد انتصر أو انهزم، فإذا كان قد قال قولًا عظيمًا لحظة هزيمته، فذلك أروع من أن يكون قد انتصر وأتبع انتصاره بلا كلام أو بكلامٍ هزيل.

وهكذا في لبنان معركة العمل الجسدي بالتحريض الواضح، وعلى مستوى العالم العربي هناك معركة «القول»، وكلٌّ يُحاول أن يكون قوله الأكثر ثورية، حتى لو كان موقفه أو عمله الحقيقي لا شيء بالمرة. كلُّنا نخسر بهذا «القول»، سواءٌ كان صادرًا عن هذا أم ذاك. بهذه المعركة الكلامية الرائعة ربما يتم للعقل المُدبر الرهيب ما أراد، وتُعزَل مصر أو تنعزل عن الشرق والغرب، وتُعزَل سوريا أو تنعزل عن العراق، وتُعزَل العراق أو تنعزل عن الكويت، وتُعزَل السعودية أو تنعزل عن هذا كله.

ويجيء أوان الالتهام.

وما أحلى التهامَكم أيها العرب القوَّالون واحدًا إثر واحد!

التوكسافين سيَقتلنا نحن أيضًا

ليس من عادتي أن أهنِّئ الأصدقاء الكثيرين الذين يتولَّون منصب وزارات، بل أكاد أقول إني أرثي لبعضهم؛ فالوزير اليوم هو الجزء الظاهر المرموق في جسدٍ وزاري تآكَل ككابلات التليفون، وانقطعت عنه الحرارة والحماس من زمن، وكأنما عليه أن يبدأ العالم من جديد، والحساب عسير، ليس عسيرًا تمامًا؛ فالحمد لله حزب الوسط أصبح يتكتَّل بأكمله وراء كل محاسبة لوزير، واستغل مسألة الأغلبية وقرار الأغلبية والنزول على رأي الأغلبية أبرع استغلال، في حين لم يعُد باستطاعة المُعارضة إلا الانسحاب، وهو عمل في رأيي سلبيٌّ تمامًا؛ فقد كان من واجبهم هم الآخرون أن يستغلوا المِظلَّة الديمقراطية البرلمانية، ويقف الواحد منهم كـ «ميرابو» أو «مكرم عبيد»، يُجلجل صوته في قاعة المجلس حتى لَتتراجع أمامه جحافل الأغلبية.

المهم، كنت أقول إني أُشفق في العادة على بعض زملائي من كبار المُتخصصين في مجالاتهم، الذين يُعهَد إليهم بأمر الوزارة، ومن هؤلاء صديقٌ عزيز عُهِد إليه أخيرًا بأمر وزارة الصحة، في رأيي، التمثال المُجسِّد المُتكامل لكل الأمراض التي تُعاني منها مصر، من بيروقراطية ومركزية وتراخٍ وموات. وليس هذا هو حالها اليوم، هذا هو حالها من أزمانٍ بعيدة من أيام المرحوم النبوي المهندس، والدكتور عبده سلام، والدكتور محمود محفوظ، ومنذ أن أُنشئت؛ ذلك أن كلًّا منهم كان قمة في فرعه الطبي، وكنت أتصوَّره أكثر كمُدير لمعهدٍ جديد يُقام، أو كمركز دراسات عالية مُتخصص في هذا المجال، أكثر من تصوري له وزيرًا، وبالذات في وزارة الصحة الباقية على حالها وقواعدها منذ أن كانت بيتًا لإسماعيل باشا المُفتش، وزير مالية الخديوي إسماعيل الذي ودَّانا في داهية. واحد فقط لم أُشفق عليه من التعيين وزيرًا للصحة، هو الدكتور فؤاد محيي الدين، بل الحقيقة كنت أُشفق

عليه من تخصصه في الطب، ومن أخذه دكتوراه في الأشعة، وتعيينه أستاذًا للأشعة بكلية الطب. كنت أقول لنفسي: ما لك أنت يا فؤاد بالأشعة أو بغيرها، وأنت منذ رأيتك لأول مرة زعيمًا لكلية الطب، وكأنما خُلقتَ لمُزاولة السياسة خلقًا. وهناك أناس هكذا، السياسة عندهم مثل موهبة التأليف الموسيقي أو قول الشعر، شيءٌ ينمو مع كروموسماتهم منذ أن يُولدوا. لم أعرف سياسيًّا ظهرت عليه علامات السياسة فجأة، كلهم منذ الطفولة تراهم يبدءون، وفي ثانوي يأخذون يخطبون ومظاهراتهم الثانوية السياسية، وفي الجامعة يبدأ الواحد منهم يلمع، وترى من طريقته وتفنُّنه وهو يخطب، ومن الرأي وهو يُبديه ويُفنده، من شخصيته المغناطيسية الجذابة. إن هذا الشاب لم يُخلَق إلا ليُزاول العمل السياسي، مهما كان نوع النظام الذي يكون فيه. وقد كنت أرقُب فؤاد محيي الدين حين جاءت الثورة برجالها الذين استأصلوا شأفة الجيل السابق والحالي من العاملين بالسياسة، وأخذوا زمام الأمور بأيديهم هم، كنت أتصوَّر أنه «جاء الأقوى منه»؛ ولهذا لم أستغرب أنه اتَّجه لدراسة الأشعة وأخذ الدكتوراه، ولكن دكتوراه مِين؟ ظل فؤاد وراءها خطوةً خطوة، وحفرًا بالأظافر وصبرًا وتحملًا، حتى أصبح من أقطاب الاتحاد الاشتراكي، ثم انتقل إلى العمل التنفيذي.

ولكني في الحقيقة كنت أريد أن أتكلم عن هؤلاء العلماء الكبار: إبراهيم بدران وحمدي السيد؛ أحسن جرَّاح عام عندنا، وأحسن جرَّاح قلب، ذلك الذي أصبح أولهما وزيرًا للصحة والثاني نقيبًا للأطباء. وإذا كنت قد شرحت من وجهة نظر الدكتور حمدي السيد في مناسبةٍ مضت، فإني وأنا أصعد سلالم قصر إسماعيل باشا المُفتش التقليدية، كنت أفكر في ذلك الرجل الفلتة — إبراهيم بدران — أكثر الناس براعةً في عمله، وأكثرهم لباقةً في حديثه، وأكثرهم حبًّا في الناس لله في لله، وعمل الخير أيضًا في السر ولله في لله. هذا الرجل كيف سأراه وقد أصبح يحتلُّ مكتب وزير الصحة، الذي أعتقد أنه لم يتغيَّر منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية.

فتحوا لي حجرته حيث وجدت مفاجأتَين في انتظاري؛ أولاهما أن مصطفى محمود كان هناك، وكنت لم أرَه من مدة؛ والثانية أن الدكتور سعد فؤاد، وكيل أول وزارة الصحة، كان أيضًا يجلس مع مصطفى، وأحسست بالعمر وكأنما تُقلبه ملعقة قِدر كبيرة، وتجعل من حاضره ماضيًّا، ومن ماضيه حاضرًا. كنَّا نحن الثلاثة معًا في الكلية؛ كان مصطفى وسعد يسبقانِني قليلًا في الدراسة، ولكن الطلبة زمان مهما اختلفت الدُّفَع كانوا — لقلة العدد نسبيًّا — يعرفون بعضهم البعض.

كان مصطفى أيامها يكتب في مجلة آخر ساعة؛ ولهذا كنَّا نعتبره قد احترف وفسد، في حين نحن لا نزال في عُذرية الهواية ومزاجية الكتابة من أجل الكتابة. وكان سعد فؤاد من أنشط وأحب عناصر الطلبة في الكلية، حتى إني كنت صديقه ونحن لسنا في دفعةٍ واحدة، ولم أكُن وحدي، كان يكاد يكون صديق كل طالب وفي أي دفعة، واحد من البحابيح الذي لا بد كلما قابلته أن تأخذه أو يأخذك بالأحضان.

المهم، جاء الدكتور إبراهيم بدران وبدأنا الحديث، وقلتُ له خواطري عن أني كنت أُفضل أن أراه على رأس معهد عربي كبير، أكبر معهد في آسيا وأفريقيا للجِراحة والأبحاث الجراحية، عن عمل الوزير في وزارةٍ أنا أعرف أن تحريك جبل المقطم أسهل من تحريكها. ولكنه كعادته كان رقيقًا حليمًا وبمنطقٍ بسيط أقنعني، قال: أنت أيضًا كان يمكن أن تكون جرَّاحًا ماهرًا ومعروفًا، ولكنك بعد حين تكشف أن علاج المجتمع كحالةٍ حالةٍ مسألةٌ لا يمكن أن تُجدي؛ إذ الأكثر خطورة هو أن تتدرَّج من علاج الأفراد إلى علاج المجتمعات الصغيرة إلى علاج المجتمع الكبير. والغريب أني تذكَّرت أني سمعت كلامًا مُماثلًا رحتُ أبحث في ذاكرتي عن قائله، وفجأةً تذكَّرت القائل؛ كان المرحوم الدكتور أنور المُفتي، الذي لم يكتفِ بقوله، وإنما مارسه فعلًا، وترك علاج الأفراد الأثرياء في القاهرة، وذهب إلى محافظة البحيرة ليبحث على الطبيعة أمراض مصر الدفينة.

وليس هذا فقط، بل وجدت أن الدكتور بدران أخذ الأمر بطريقته العلمية أو الجراحية المُنضبطة؛ فقد درس كل تاريخ وزارة الصحة، وما تعاقَب عليها من مشاريع، وحظوظ هذه المشاريع من النجاح أو الفشل، ثم اجتمع بكل من ولِيَ وزارة الصحة الأحياء منهم كلٌّ على حِدَة؛ ليتدارس مع كلٍّ منهم ما رآه وما حاول القيام به، وما يراه من أوجُه النقص ومن نُقَط الإيجاب، بل إنه لينتهز فرصة وجودي أنا ومصطفى محمود ليعرف آراءنا، باعتبارنا إحدى حلقات الاتصال بين القضية المصرية العامة وصحة المواطنين كأطباء سابقين، وإن كنَّا لم نتخلص بعدُ من الرؤية التشخيصية الطبية.

سألنا عمَّا نراه من نقص في الهيكل العلاجي وفيما تقوم به وزارة الصحة. والحق أني شخصيًّا كانت لي آراءٌ كثيرة فيما فعلته وزارة الصحة خلال ربع القرن الأخير بنفسها وبالناس؛ فكنت فعلًا ضد ما سُمِّي بالوحدات العلاجية، التي حلَّت محلَّ مستشفيات البلهارسيا والإنكلستوما المُتنقلة، والتي نُرسل لها طبيبًا لم يُدرَّب بعد، كلشنكان، ساخطًا بالطبع على حظه الذي رماه في أقصى الصعيد بدل أن يُعيَّن في مستشفيات القاهرة، وحتى بعد تعميم الخدمة الإجبارية في الريف، لا يزال الطبيب العادي أقلَّ كفاءة من أن نعهد

إليه بالإشراف على مستشفًى. بمعنًى أدق، نحن «فتَّتنا» الطب، وبدلًا من أن تُقيم الثورة عشرة أو عشرين مستشفًى في ضخامة قصر العيني وإمكانياته العلمية وأساتذته، بعثرت النقود في وحداتٍ علاجية لا يمكن إلا أن تُقدِّم «الراوند والصودا»، أو تُعالج الحالات البسيطة التي كان من الممكن علاجها بواسطة عربة كالمستشفى الصغير، تمرُّ على القُرى والعِزب، وتقوم بكل ما تقوم به الوحدات الصحية الآن.

وكانت النتيجة طبعًا هذه الهجرة المُخيفة للأطباء خارج مصر، ويفزع الإنسان فعلًا حين يعرف أن ثلث الأطباء العاملين في بريطانيا كلها من الأطباء المصريين المُتخصصين، وفي أمريكا لدينا أكثر من ثلاثة آلاف طبيب، على حين أن بلادنا ينخر المرض في عظم جسدها الكبير الذي يتضعضع عامًا بعد عام.

هنا بدأ الدكتور إبراهيم بدران حديثه الجادَّ العميق لنا. كنت قد لاحظت في أثناء تردُّدي على بلدنا أن وجوه الناس غريبة، لونها لا هو أسمر ولا هو أصفر، وإنما كالمطلية بالرماد، وفيها ورم وانتفاخ، والناس تعجز بسرعة، نجد الواحد سنه ٣٠ سنة وأقل ما تُعطيه له من سن تقديريًّا لا يقل عن الخامسة والأربعين. كنت أقول لنفسي هناك شيءٌ ما خاطئ أصاب أهل الريف، ولا يعرف أحدٌ كُنهه.

الدكتور إبراهيم بدران حل لي اللغز، قال إنه التوكسافين ومُبيدات لطع ديدان القطن أحدثت ما يمكن أن نُسميه وباءً أصاب أكباد كل الفلاحين، حتى الأجيال الصغيرة الطازجة. لم تعُد البلهارسيا هي المشكلة في الريف، أصبح مرض الكبد أو التسمم الكبدي نتيجة للتوكسافين وغيره من المُبيدات؛ بمعنى أننا نُبيد الدودة هذا صحيح، ولكننا نُبيد معها أكباد الفلاحين، وباعتبار الكبد هو المايسترو الكامن وراء كل العمليات البيولوجية الهامة داخل الجسم، فإن هذه المواد تُصيبه بالشلل؛ أي بالتليف، وإنها كارثةٌ قومية لم يلتفت إليها أحد، ولا بد من مؤتمرٍ علمي عاجل، إما يُقرر وقف استعمال هذه المواد السامَّة، التي تتسلل أيضًا إلى أبناء المدن عن طريق تواجدها ضمن التركيب الجزيئي للنباتات ولحوم الأبقار والخراف، وأن نجعل حملة مقاومة الدودة حملةً قومية تتمُّ بجمع «اللطع» قبل أن تفقس وتحتاج إلى الرش بالتوكسافين. إنها ليست مسألة تلوث بيئة تقوم لها بلادٌ غيرنا وتقعد، ولكنها مسألة تسمُّم بيئة وخضار ولحوم تضرب أول ما تضرب أكبادنا، وأولها أكباد المُحاربين في الصف الأول، الفلاحين، في مَقتل.

لا بد من إيقاف استعمال المُبيدات الحشرية؛ فقد بيَّنت ضررها الشديد وخطرها على كافة أنواع الحياة وبالذات أهم حياة؛ حياة الإنسان.

أما كيف يتم هذا فهو موضوع لا بد أن تتبَّناه وزارات الصحة والزراعة والشئون الاجتماعية، ومعاهد البحوث، وحتى وزارة الداخلية.

إن الريف هو المكان الوحيد الذي يتزايد فيه إنتاج الناس في مصر، ولولا الفلاح، كما ذكر لي مرة الدكتور عبد العزيز حجازي، لَمَا استطاعت مصر الصمود سنوات الاستنزاف، خلال أن كان علينا أن نصرف اثنين مليون جنيه يوميًّا على جيشنا.

وإذا كنَّا قد أهملنا ركيزة أهلنا الأولى إلى الآن، حتى بدأ النخر يصل إلى كبد الفلاح؛ المَورد الأول لغذاء وكساء وطعام مصر.

إني مع الدكتور إبراهيم بدران إلى آخر المدى في وقفته المَجيدة لمنع الجريمة التي أصبحنا ضحاياها؛ جريمة التوكسافين والمواد السامَّة الأخرى، ووزارة الصحة وحدها، حتى بكلِّ ما لديها من ميزانية وأجهزة لا تكفي، إننا في حاجة إلى جبهةٍ قومية بقيادة وزير الصحة تُضمُّ إليها، وكأننا فعلًا في حالة حرب، كل ما يمكن أن نُحارب به ذلك العدو.

إننا لا يمكن أن نُضحي أبدًا بإنساننا من أجل محصول قطن أوفر، وطريقة تنقية اللطع هي الأضمن والأسلم، ولكن للأسف، جرَّنا التواكل إلى الاعتماد الكامل على المُبيدات الكيميائية، التي يمكن أن تُبيد الدود هذا صحيح، ولكنها من المحتَّم آجلًا أو عاجلًا أن تُبيد معها الإنسان كما أبادت الغربان وأبا قردان.

لنعقد فورًا ذلك المؤتمر، ولننظر إليه وكأنه مؤتمر للأمن القومي؛ فحياة فلَّاحنا، وحياتنا أيضًا، في خطر التسمم الكبدي الذي تؤدي إليه المُبيدات الكيميائية.

صناعة الأفكار

أخشى ما أخشاه أن تكون القاهرة أو المدينة كما ابتلعتنا سكانًا، سواء بإرادتنا أو برغم أنفنا وحكم عملنا، أن تبلعنا أيضًا اهتماماتٍ وتمثيليات وأفلامًا وطريقة حياة، أن تبتلع في الحقيقة مصر كلها، بحيث إن أي موضوع يُعالج خارج اهتمامات القاهريين نُغلق في وجهه الصفحة أو نُغير محطة التليفزيون. إن المُستهلكين لوسائل الإعلام عندنا للأسف معظمهم من الطبقة المتوسطة، التي إما على حافَّة تعليم، وإما عالية الجبهة إلى درجة تنطح سماء أوروبا نفسها. وهؤلاء ماذا يهمُّهم من أمر فلاح فاقوس أو دكرنس؟ ماذا يهمُّهم من صيَّادي بحيرة البرلس أو قارون؟ ماذا يهمُّهم من مشاكل عامل الإشارات في محطة تونة الجبل، إلا لكي يسحبوه من رقبته إذا وقع حادث؟ إنه في رأيي تعفُّنٌ فكري سيئ؛ ذلك أن العقل البشري نفسه لو ظل يعيش ليلَ نهار في نوع ولون وطعمِ مشكلةٍ هي نفس المشكلة التي يعيشها شارعًا وتليفزيونًا وتمثيلية، إذاعة وخطبة واعظ، يُصيبه الشلل ويتوقَّف، ثم تبدأ المشكلة تتعفَّن داخله أو يتعفَّن هو داخلها.

وأكثر ما يحزُّ في نفسي أن الكتاب لكي يُقرأ يجب عليه أن يُكتب عمَّا يُثير اهتمام قُرائه لقراءته، وقُراء جرائدنا ومجلاتنا وكتبنا معظمهم من أهل القاهرة أو الإسكندرية أو المدن الكبرى، وحتى لو كان قُراء من الريف يقرءون، فلا بد أنك تجدهم قد نزحوا من القرية، وأصبحوا مثلما نقول من مُغتربي الأرياف في قلب المدينة. وكثيرًا ما جاءتني خطاباتٌ تلومني بشدة على إهمال مشاكل الفلاحين والصيَّادين والبحَّارة والبنَّائين والنجَّارين والحِرفيين، وكثيرًا ما أنَّبني ضميري أن شعبنا كبيرٌ كبير ومليء بالصناعات والحِرف والمشاكل، وأن الله سبحانه لم يجعل قلبَين في جسد، وماذا يستطيع قلمٌ واحد أو مقال أو صحيفة بأكملها، وكل الإعلام موجَّه إلى المركز الساحر «القاهرة» يُرضيها ويُقيم الدنيا

ويُقعدها على مطبَّاتها، في حين أن الفلاح أو عامل المخبز في دمياط مثلًا يحيا في حجرةٍ هي كلها حطب، أو نتأثَّر ذات مرة إذا وقعت حادثة تصادُم مُروعة على الطريق الزراعي، ونقرأ الخبر بلا أي اهتمام، وخمسون بالتمام والكمال تغرق بهم على مرمى البصر مَعدية في النيل، أو عشرات يفعصهم قطار أقاليم ترنَّح لهول الفرامل وسقط. هناك خارج القاهرة، وحتى داخل القاهرة، الناس أرقام، وأرقام حتى بلا أي مضمون، أرقام مجردة كالأرقام الرياضية، ولكن الضرب هناك حقيقي، والقسمة غير العادلة حقيقية، والجمع بأقل الأثمان.

ولكن أحيانًا تهبُّ كنسمات الصيف أشياءُ تبعث على الأمل، وإني متأكد، ولو أن كاتب هذا الخطاب وزيرٌ حالي، إلا أني أعتقد أنه لم يكتبه أبدًا كوزير، وإنما كتبه كفلَّاح من الدقهلية أولًا، ثم كمُكافحٍ سياسي أُنقذ بأعجوبة من رصاصةٍ إنجليزية أيام ثورة ١٩٣٦م، وكان ضمن زملائه الذين استشهدوا عبد الحكيم الجراحي؛ ذلك الذي حين دخلنا الجامعة في الجيل الذي تلاه كان لنا نبراسًا ومثلًا أعلى، وكان نُصُب الشهداء في الجامعة له من القداسة في نفوسنا، ويوم الشهداء له من الروعة، ما جعل جيلنا يجود بعشرات الشهداء في معارك ميدان الإسماعيلية (التحرير حاليًا) وكوبري عباس وغيرهما من المذابح والمعارك الرهيبة، إلى أن جلا الإنجليز عن مصر، وجلت الرجعية عن الحكم.

وهذا هو الخطاب:

> السيد الدكتور يوسف إدريس، تحيَّاتي الخالصة لشخصك ولجهدك المُخلص المُتواصل في خدمة بلادنا العزيزة.
>
> لقد قرأت ما جاء في «مفكرتك» في الأهرام يوم ١٧ يونيو الماضي، والحق أن الموضوع الذي عالجته تحت عنوان «التوكسافين سيقتلنا نحن أيضًا»، قد أثار من الاهتمام ما هو جدير به كموضوعٍ يتصل بالاقتصاد المصري، وفوق ذلك بصحة الإنسان المصري الذي ننظر إليه باعتبار أنه هو الغاية أولًا وأخيرًا.
>
> وإذا كنت أكتب لك الآن وبعد هذه الأسابيع من نشر الموضوع، فإنما أكتب لأقول لك أولًا: إنني معك أكره التوكسافين أيضًا، وأرجو أن نُوفَّق جميعًا في الحد من استخدام هذه الكيماويات السامَّة، التي اتسع استخدامها إلى الحد الذي أصبح يُهدد الإنسان والنبات والحيوان على أرضنا.

ثم إنني أكتب لك وأنا أثق في أنك سوف تؤيد — بكل ما يعرفه عنك قُراؤك من إخلاص — مشروعًا قوميًّا تبدؤه وزارة الزراعة في هذا العام على نطاق الجمهورية، وهو مشروع مقاومة ديدان اللوز عن طريق التخلص بالحرق من اللوز العالق بحطب القطن، وهو الذي يكمن فيه مصدر الإصابة بهذه الديدان في السنة التالية.

إن هذه الحشرات خسارةٌ مباشرة للمحصول، والمقاومة التقليدية لها تكون برشِّ نباتات القطن ٣–٤ مرات خلال الموسم بمُبيداتٍ شديدة السُّمية، تُعرِّض الذين يتداولونها وكذلك حيوانات المزرعة لأخطار التسمم، وقد تزيد تكاليفها عن ٢٣ مليون جنيه سنويًّا تُدفَع كلها بالعملة الصعبة، علاوةً على التأثير الضار لهذه المُبيدات على إنتاج نحل العسل والحشرات المُفيدة الأخرى، وما يترتَّب على استخدامها من مشكلاتٍ عديدة أخرى قد يضيق المجال عن ذِكرها.

لهذا رأت الوزارة — بدلًا من استمرار الاعتماد على المُبيدات — أن تتقدَّم بمشروعٍ أساسه جمع اللوز المُصاب العالق بأحطاب القطن والتخلص منه بإحراقه، وحقَّق تنفيذ المشروع في محافظة الفيوم نجاحًا كاملًا، وأسفر عن زيادة في المحصول عن العامَين السابقين دون استعمال المُبيدات كلية.

وترتيبًا على نجاح المشروع في محافظة الفيوم، رأت الوزارة تعميم المشروع في هذا العام على مستوى الجمهورية.

وإذ تعمل وزارة الزراعة على تنفيذ هذا المشروع، فإنها تُؤمن بأن جهدها وحدها في سبيل إنجاحه لا يكفي، وتُدرك تمامًا أن ما يحتاج إليه المشروع هو وعي الفلاحين، واهتمام الرأي العام، وطاقات الشباب الذي يدين للريف بنشأته، ويدين لمصر بكل ما في عنقه، وأن كل ذلك من الممكن أن يجتمع إذا وضعت صحافتنا وأجهزة إعلامنا هذه القضية في دائرة الاهتمام العام، وهذا هو ما دعاني لأكتب لكم.

لقد كانت لكم مُبادرتكم في إثارة قضية المُبيدات الكيماوية وأخطارها، وقد عالجتم القضية باعتبار أن المحافظة على صحة الإنسان المصري جزء من رسالةٍ تؤمنون بها، وها هو مشروعٌ قومي جديد يستهدف نفس الهدف، وتثق وزارة الزراعة في أنكم سوف تقفون بجانبه.

وفي الختام لكم خالص مودتي وتقديري وأصدق تمنياتي لكم بدوام التوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في: ٦ / ٨ / ١٩٧٧م
وزير الزراعة
مهندس إبراهيم شكري

لا تتصوَّروا مدى سعادتي بهذه التجربة الخطيرة التي توصَّلت إليها وزارة الزراعة والفرحة القصوى؛ لسببَين: أولهما أننا سنُنقذ فلاحنا المصري، بل وسنُنقذ أنفسنا؛ فلقد كنت أقضي العيد في قريتنا، ولاحظت اصفرارًا ترابيًّا في عدد من وجوه أصدقاء الصِّبا، وبصمات التسمم الكبدي مرسومة على وجوههم في لون الموت المُقبِل.

لقد تركت الإجازة، وأحَلتُ اثنين منهم إلى الدكتور محمود سالم أخصائي الأمراض الباطنية في مستشفى فاقوس المركزي. والعجيب أننا بالتحليل لم نجد أي طفيليات هي السبب في هذا الاصفرار الترابي الغريب، إلا أن يكون التوكسافين، وليسوا هم وحدهم الذين يُعانون من هذا، ولكني اخترتهم لأني كنت قد رأيتهم من أربعة أشهر فقط ولم يكن لونهم هكذا أبدًا.

ولقد شرَّفني بالزيارة ضابط في مركزٍ كبير بالقوات المسلحة، وأطلعني على بحثٍ أعدَّه عن أثر هذه المُبيدات السامَّة، وكيف أنها تتسرَّب من خلال الخضراوات واللحوم، وحتى اللبن والزبدة والبيض والجبن الذي يأتي إلى سكان المدن من الريف، وتُسمم خلايانا نحن سكان المدن، وبالذات خلايا الكبد. والغريب فيها أنها تُسمم الخلية من الداخل؛ أي تستطيع اختراق جدار الخلية المَنيع على الجراثيم، وتُفقدها الحيوية، ثم تقضي عليها؛ وبالتالي علينا.

فرحتُ لأننا — إلى أن ينجح هذا المشروع العظيم في القضاء على الدودة — لا بد أن نمتنع عن استخدام هذه المُبيدات الكيماوية.

وفرحتُ ثانيًا ولأن هذه الدودة اللعينة تأكل عرق جبيننا، أو بالتحديد ثلثه تمامًا، وكأنها مصلحة ضرائب طبيعية، كل ما في الأمر أنها تتبع الشيطان، بل بالذات تأكل ثلث عرق أعز وأغلى إنسان على أرضنا؛ فلاحنا المصري الوحيد الذي ينحني كاهله بسبعة آلاف عام، من أجل أن يُطعمنا ويسقينا ويدفع ثمن أسلحتنا الفاسدة، فلاحنا الذي سألت مرة

الدكتور عبد العزيز حجازي وهو وزير للخزانة قبل عام ١٩٧٣م: كيف استطاعت مصر الصمود اقتصاديًّا منذ ٦٧ إلى يومنا، في حين أن أحد أسباب دخولنا حرب ٦٧ كان أن بلادنا مُفلسة أو على وشك الإفلاس؟ أجابني بأن السبب أن الفلاح المصري شدَّ حيله، فزاد إنتاجنا الزراعي ٣٠٪ عمَّا كان قبل ٦٧.

شكرًا يا فلاحنا الأب الغالي، وأبدًا لن ندعك تموت بالتوكسافين، ولن ندع عرقك يذهب سُدًى على أيدي الديدان الصغيرة والكبيرة.

وشكرًا يا ابن الأصول الوطنية يا إبراهيم شكري.

وإلى إعلامنا العزيز، سِيبوكم بقى شوية من حكاية بروفيل وبيدوفيل، والكلام عن تفاصيل ما ترتديه فلانة وعلانة، وعن الماكياج والدوبلاج والهيافات، واعملوا شيئًا من أجل مصر الجادَّة التي يموت الناس فيها من أجل أن تأكلوا العيش والبقلاوة، وتتحدَّثوا عن الفرق بين مدرسة تحية كاريوكا في الرقص ومدرسة سامية جمال.

كفاية بقى يا عالم، واصنعوا شيئًا مُفيدًا حتى لكم أنتم.

ما رأيكم في هذا الاقتراح؟

احتفالًا بإعادة فتح قناة السويس للملاحة البحرية أمام سفن العالم أجمع، فإني لأتساءل إذا كان العالم فعلًا — خارج عالمنا نحن الصغير — يُدرك وبالذات على مستوى رجل الشارع ومُشاهد التليفزيون، كُنْه ووقْعَ وعظمة وروعة هذه الهدية التي قدَّمتها مصر لكلِّهم؛ للروس وللأمريكان وللألمان والإسبان والهنود والباكستانيين وبلاد أفريقيا وبلاد جنوب غربي آسيا، لليابان بتجارتها الضخمة الهائلة التي تمرُّ عبر قناة السويس، ولألمانيا الغربية بالذات وصناعاتها، ومعظمها يذهب إلى مناطق الخليج، والعالم البترولي الذي يُعَد أكبر سوق لتجارة تصدير المنتجات الصناعية، تقريبًا لكل دولة من دول العالم قدَّمنا هدية، بعضهم أحسَّ هذا وأدركه وأشاد به، وبعضهم اكتفى بالطبطبة على كتف مصر مُهنئًا ومُشجعًا، وبعضهم قدَّم قروضًا لاستخراج المُفرقعات والقنابل والمراكب الغارقة في قاع القناة، وبعضهم بتقديم قروض من أجل مشروعات تحسين القناة وتعميق مجراها، واستكمال خطة جعل الملاحة تسير في اتجاهَين توفيرًا للوقت والجهد.

وهذه كلها أشياء حسنة وجميلة، وشاكرين أفضالكم أيها السادة من المُقدمين والواعدين وحتى المُكتفين بالتهنئة، شاكرين فضل الولايات المتحدة بالذات؛ إذ لولا بذلها ذلك الجهد الخارق لانتشال القنابل والألغام والمُتفجرات الراقدة في بطن القناة، هي وغيرها من الدول التي أسهمت في هذا العمل الجليل الجبار، لَكان صعبًا تمامًا على مصر وحدها أن تقوم بهذا العمل؛ فلا الخبراء لديها ولا المُعَدات، ولا النقود التي «تُشغل الخبراء» والمُعَدات.

ونحن، المصريين، مؤدَّبون، هذا صحيح، ودائمًا نأتي على أنفسنا، هذا صحيح، ولكن أدبنا الشديد هذا لا يمنعنا أن نسأل، بل في الواقع ومنذ الآن ونحن في عالمٍ أصبح يتعامل بالمصالح؛ خد وهات. لا أخذ من غير هات، ولا حق لك في طلب الهات من غير أخذ.

وصدِّقوني إني أُفضل هذه اللغة الواضحة المباشرة عن التعبيرات المطَّاطة، التي تفضَّل قرننا العشرون وأفرغ محتواها من كل ما من أجله ابتُكرت في القرن التاسع عشر من أجل القيم الإنسانية، من أجل الروابط الأخوية بين شعوب العالم ودوله. ويوم للطفولة في العالم آخر من يسمع به هم الأطفال، ويوم للشباب في العالم آخر من يعرفه ويُدرك لماذا اختير هم شباب هذه الأيام، وأشياء مثل: ولو أني أختلف معك في الرأي إلا أني على استعداد لأن أفقد عنقي في سبيل حقك أن تأخذ أنت الفرصة لتقول رأيك. ألا يبدو هذا شيئًا مُضحِكًا ومُسليًا إلى أقصى حد؟ ومن في العالم مستعدٌّ أن يفقد ليس رأسه، ولكن زرار بنطلونه حتى دفاعًا عن حق العاجز أو المرأة أو الكهل، أن يحظى هو بالمقعد الذي خلا في الأتوبيس أو القطار أو البيجو؟

ولكن هذا موضوعٌ آخر، لنا فيه لا بد حديثٌ آخر؛ حديث عن أن العالم قد «انحط»؛ لأنه لم يعُد يتمسَّك بأية قيمة، أو هو قد «تغيَّر» فعلًا، وأصبحت داخله قيمٌ أخلاقية أخرى، كل ما في الأمر أننا نجهلها ولا نراها.

نحن ما زلنا في أسبوع الاحتفال بإعادة افتتاح القناة، ما زلنا نقول إن مصر قد تصرَّفت تجاه هذا الأمر بمنتهى الإنسانية وعدم الأنانية المُطلَق؛ فورقة قناة السويس كانت من الأوراق الرابحة جدًّا، كانت «الآس» في يد اللاعب المصري، وبالقرص عليها كانت دول العالم، بشرقه وغربه وشماله وجنوبه، ستتألَّم وتتلوَّى ألمًا، إلى الدرجة التي كانت ستبذل فيها أقصى ما تستطيع لتضغط على إسرائيل أو أمريكا أو كليهما معًا لكي نحل القضية؛ وبالتالي يُعاد فتح القناة كجزء من التسوية الشاملة للمشكلة. كانت ورقة ضغط، ولكنها ورقةٌ المُؤلم فيها أنها «تُوجع» العدو والصديق معًا؛ فالهند وإيران وإندونيسيا وباكستان وماليزيا، وأشقاؤنا دول الخليج، وأصدقاؤنا في أوروبا، كل هؤلاء «يُعانون» و«يتألَّمون»، وربما كانت الولايات المتحدة (بعد تصنيع ناقلات البترول العملاقة) وإسرائيل أقل من سيُؤلمهم وضع كهذا.

إني لا أعرف بالضبط كيف تفكر قيادتنا السياسية، ولكن الذي أعرفه أن تاريخ الحركة الوطنية المصرية كلها كان دائمًا تاريخًا لا يفصل بين الغاية والوسيلة مُطلَقًا، ومحالٌ أن كان يرضى أحد أن تتراجع إسرائيل بضع عشرات من الكيلومترات لكي نتمكن من إعادة فتح القناة نتيجةً لمُعاناة العالم الخارج عن القضية، ونتيجةً لأنه لا يمكن أن نحصل على قنالنا باعتبار أن الناس في الهند أو في يوجوسلافيا تألَّموا من أجلنا، فلنأخذها إذن بقوة السلاح. وفعلًا انتزعناها في عمل كالمعجزة في أقل من ست ساعات استعدنا القناة، وانتزعنا أكبر شوكة كانت مغروسة في جانب مصر الأيمن؛ خط بارليف.

وأيضًا مثلما ظلَّت مصر خمسين عامًا وهي ترفض استقلال مصر بغير استقلال السودان والوحدة معه، ومثلما تأخَّر استقلالنا خمسين عامًا نتيجة لعدم الفصل بين المبدأ والهدف، كان من الممكن بعد ٦ أكتوبر، وبعد نجاحنا في كسح إسرائيل ثلاثين كيلومترًا إلى الوراء، كان ممكنًا أن نتخندق هناك، ونُساوم العدو وحلفاءه على إعادة فتح القناة. إذا كنتَ أيها العالم تريد منا أن نفتح القناة، فعليك بإسرائيل وأمريكا، لا لتُصفيا القضية المصرية الإسرائيلية، فكم من عروضٍ انهالت على الرئيس عبد الناصر والرئيس السادات بحل مشكلة مصر تمامًا وجلاء إسرائيل عن سيناء، في مُقابل نفض مصر يدها من القضية الفلسطينية، كان ممكنًا أن نقول للعالم: إذا أردت أن نفتح القناة فعليك أيها العالم بالضغط على أمريكا وإسرائيل من أجل حل القضية الفلسطينية أولًا، والجلاء عن المناطق المحتلَّة والعودة لحدود ٤ يونيو ٦٧ ثانيًا.

ولكننا أيضًا لم نشَأ أن نلعبها «قذرة»، مع أننا نُواجه عدوًّا يستعمل معنا أقذر وأخس وأخبث أسلحته، بالتهديد بالمال وبالنساء بإفساد الذمم، يأخذ صورًا لرجال الكونجرس مع سكرتيراتهم في غُرَف الفنادق وتهديدهم بها، ليصبح السناتورز هم الوسيلة الأفعل لضمان أغلبية على طول الخط مع إسرائيل. كنت أحيانًا أسرح في مشكلتنا مع إسرائيل، وأفكر في هؤلاء الصهاينة الذين جرَّنا سوء الحظ وسوء التقدير إلى الالتحام المُبكر بهم، قبل أن نستعدَّ داخليًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا أولًا، المهم كنت أقول لنفسي ليتنا كنَّا نُحارب دولةً كبرى محدَّدة واضحة، حتى لو كانت أمريكا أو الاتحاد السوفيتي؛ فعلى الأقل كنا عرفنا لها رأسًا من رجلَين، ولكننا اشتبكنا مع عدو كالأخطبوط، له في كل مكان مِخلب، وفي كل دولة أوروبية أو غير أوروبية، بل أحيانًا عربية، تنظيماتٌ دقيقة جدًّا، وكلها كالجهاز السرِّي المدرَّب، يعمل معًا وبتنسيقٍ مُذهِل، لكأننا نُحارب مجتمعًا من المخابرات بنسائه وأطفاله وصبيانه وشيوخه، حتى الذين أصبحت أرجلهم على القبر، مُنبثِّين في كل مكان. لو كان يؤخذ برأي الناس ساعتها أو برأي الكُتاب لكنت فورًا وعقب نجاح ثورة ٥٢ كتبت مقالًا أُحذر فيه من الاشتباك مع إسرائيل، وأقول فيه إننا حتى لو أدركنا هذا فسنُستدرج وسنُستفز حتى يجرُّونا، أردنا أم لم نُرِد، إلى معركة معها، ولا بد أن نتجاهل هذا كله حتى ننجح داخليًّا في إقامة المجتمع المصري القوي الذي كنا نحلم به، وكذلك بفعل كل بلد عربي، فنتجنَّب كعرب تمامًا الاشتباك في أي حرب معهم، حتى نبني القوة الذاتية الداخلية، بما فيها القوة الذاتية الفلسطينية التي كان عليها هي وحدها وحين يأتي الوقت المناسب، أن تُحارب إسرائيل حرب مجتمع مُحارب لمجتمع مُحارب، ومعها

وحولها أربع عشرة دولةً عربية بمُتطوعيها وأسلحتها، وبكل نفوذها وسطوتها وقوتها، يُغذون حركتها الوطنية بكل ما تحتاج إليه من رجال ومال وعتاد.

ولكنهم هم — أعوذ بالله — خُبثاء خبثًا! من أول يوم وضعوا نصب أعيُنهم، ليس فقط أن يأخذوا كل فلسطين، ولكن الأهم أن يُوقفوا هذا العملاق العربي عن النمو، أن يجهضوه داخليًّا، وبالذات عملاق العمالقة مصر، وأي مصر؟! مصر التي ثارت وعزلت ملكًا فاسدًا وحكمًا أفسد؛ أي بدأت تضع قدمها على أول الطريق للنمو الذاتي.

ولكننا ببساطةٍ شديدة، ولأن لا أحد كان ولا يزال يحفل بمن يفكرون أو يكتبون أو بما يقولون، ظللنا نُستدرج خطوةً خطوة، وبدلًا من حربٍ واحدة دخلنا أربع حروب. وما زلنا نتحدَّث بحكم الضرورة القصوى عن حربٍ خامسة. وهذا هو بالضبط ما كانت تريده إسرائيل؛ أن «تصنع» شعبًا، وكيف يتم صنع شعب إلا بغسل مخه، وإفهامه أنه مُحاط بأعداءٍ سيأكلون عظمه قبل لحمه، ولا بد من أن تُحاربهم مرة واثنتين وثلاثًا وإلى الأبد إذا أرادوا؟ ذلك أن الصهاينة كانوا دائمًا يخرجون، حتى إذا انهزموا، مُنتصرين؛ فهم إذا هُزموا نمَّوا لدى شعبهم شعور الأخذ بالثأر، وإذا انتصروا اكتسبوا أرضًا جديدة ومواقع أقدر، وفي كلتا الحالتَين بلورت لدى أجيالهم، وبالذات الجديدة، فكرةَ أنه «شعب» واحد، وأن من الممكن أن يقتل أي يهودي نفسه دفاعًا عن هذه الفكرة التي توارثتها أجيال عبر أجيال من عتاة الأحبار من الأقدمين، دفاعًا عن أسطورة لو نظر إليها أي شخص عاقل أو غير «مُروَّع» أو «مَخوف» بالأعداء المُحيطين، لوجد أنها نكتةٌ يضحك لها فقط، ولا يمكن أبدًا أن يقتل أو يقتل من أجلها.

إن الذي قطم ظهر الشعب المصري هو اشتباكه المُبكر، وقبل حتى أن يُرتب بيته وكيف يعيش وأين يجلس أو يأكل، على «وِدنه» على طول هكذا، من الدار إلى النار، مِن بالكاد أزاح حكمًا استعماريًّا واحتلالًا بغيضًا إلى معركةٍ هو — على الإطلاق — غير مُستعد لها.

وكل الارتباكات الحادثة في دول المواجهة، ودول غير المواجهة مع إسرائيل، ولتكن المواجهة مع جهاتٍ أخرى، سببها أنهم يريدون أن نُخفق، أو بالأصح لا يُسمَح لنا إلا بنحوٍ معيَّن وفي اتجاهٍ معيَّن لأوضاع البلاد العربية كلها، والخطة ماضية بنجاحٍ هائل.

المهم نعود إلى قناة السويس. طيب أيتها الدول العظيمة التي نشكر لها قروضها وكرمها وكل شيء قدَّمته لنا، فلنجلس إلى مائدة مفاوضات بسيطة مُتواضعة، أو حتى على شط القناة، ولنرقُب السفن الآتية والذاهبة عبر هذا «العنق» المائي الهائل، ألم نُثبِت

للعالم في عام ١٩٥٦م أننا ممكن أن نُمسِك الدنيا كلها من «زمارة» رقبتها لنجلس إلى هذه المائدة البسيطة؟ ولنُنحِّ جانبًا العبارات الإنسانية والأخوية الفخمة الفاخرة، ولنُنحِّ جانبًا حتى حكاية أن جدودنا حفروا القناة بعظامهم، سواء بموتاهم تعبًا، أو بموتاهم جوعًا وسُخرة، لنُنحِّ جانبًا حق التاريخ نفسه، ونتساءل: حقيقةً، من تخدم هذه القناة؟!

ستردُّ عليَّ من فَورك وتقول: إنها تخدم الخزانة المصرية، يدخل لكم عائد منها تعداده اليوم ٢٠٠ مليون جنيه، وغدًا سيكون أكثر وأكثر بمشاريع تعميق وتوسيع القناة. ولكنا — كما قلت لك — في عصر المصالح، ولغة المصالح التي لا ترحم. لا أقول إن قيمة البضائع المارَّة عبر القناة تُساوي مليارات ومليارات الدولارات، ولكن هذا الاختصار العظيم لزمن مرور البضاعة اختصارٌ يكاد يبلغ نصف المسافة فيما لو لفَّت حول طريق الرجاء الصالح، هذا الاختصار الهائل للزمن أليس ربحًا؟ ستقول لي: آه، ولكنك تتقاضى عليه رسوم العبور. وأنت وأنا نعلم تمامًا أن رسوم العبور هذه لا تتجاوز الملاليم إذا قُورِنت بثمن البضاعة، أو المكسب الناتج عن اختصار الزمن. إنها تكاد تكون شيئًا «اسميًّا» إذا قُورِنت حتى بأسعار الشحن وليس بثمن البضاعة. كان ممكنًا ونحن في يدنا السلاح، ومعنا الكارت الرابح، ولا شريك لنا أو مُنافس آخر تذهب لتعبُر من قناله، كان ممكنًا أن أنتهز هذه الفرصة، و«أفرض» عليك أنا ما شئت من رسوم، أرفعها كما رفعت دول البترول مثلًا ثمن بترولها اثنَي عشر ضعفًا مرةً واحدة، أو كل عام أزيدها عشرة أو خمسة عشر في المائة، كما يزيد و«يغلى» ثمن كل شيء في العالم.

ذلك أننا أصلًا لسنا تجارًا، ومعظم تجارتنا الكبرى ظلَّت قبل الثورة في أيدي اليهود والأروام الشوام، ومعظم دكاكين بقالتنا فتحها الفلسطينيون الوافدون إلى مصر بعد ثورة سنة ١٩٣٦م. نحن زُراع آه، بُناة آه، حِرفيون ومثقَّفون لأعمالٍ تعتمد على النبوغ الفردي آه. أما التجارة فنحن لا نُحسِنها قطعًا، ولكن لكل شعب طبيعته، وطبيعتنا ليست تجارية بالمرة. وهكذا نرى في كل مكسب جاء بناء على «شطارة» في «التجارة» مكسبًا أقل مستوًى بكثير من الذي يأتي عن طريق الجهد الحقيقي الدائب والكدح.

ولكننا في أزمان وفي عالمٍ أصبح يُحتم علينا أن ليس فقط نُتاجر، وإنما — وهذا هو الأهم — نستعمل منطق التاجر؛ فالعالم اليوم أحلَّ الانتفاع أو تبادُل المَنفعة محلَّ كل القيم الإنسانية، وغير هذا لا تُصدق أي كلام معسول آخر. كان ممكنًا إذن لمصر وهي تملك قناةً وحيدة فريدة تصل بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، أن تُحدد سعر رسوم المرور، وكانت الشركات ستدفع مهما بلغت قيمة الرسوم الزائدة؛ فلن تصل إلى واحد على كذا من التكلفة عن طريق الرجاء الصالح.

صحيحٌ ساعدنا العالمُ في تطهير القناة، ولكنه ساعدنا لمصلحته هو أولًا، وليس من أجل سواد عيوننا، ويُساعدنا في التوسيع والتعمق بالقروض، وهذا أيضًا لمصلحته هو أولًا؛ فما دام الأمر كذلك، وما دامت قناة السويس تُفيد العالم مئات بل وآلاف المرات قدر إفادتها لمصر، فلماذا لا نتصارح أيها الأخ الجالس أمامي حول مائدة المفاوضات التي اتفقنا أن تكون صريحة؟

وهذه المرة لن تكون المسألة مسألة قيم، ولا استرداد سيناء لقاء مُقابل، هذه المرة نتدارس المسألة علميًّا وحسابيًّا. الدول التي تستفيد من القناة هي أولًا الدول التي تُصدر منتجاتها إلى بلاد آسيا وأفريقيا، وهي أيضًا التي تستورد موادَّها الخام — وبالقطع أهمها البترول — عبر هذه القناة، في الرايحة مكسب، ومصر تُدير وتُصرف وتُقدم خدمةً أحسن ألف مرة من خدمة شركة قناة السويس القديمة (مُضحِك للغاية أن نعرف أننا برضه لتمسُّكنا بالقيم عوَّضنا المُساهمين عن تأميمنا للقناة بأعلى سعر وصلت إليه سندات الشركة في بورصة باريس في اليوم السابق على التأميم، وقبل أن يعرف أحد في العالم غيرنا أننا سنُؤممها. وهكذا تكوَّنت من المُساهمين هؤلاء شركةٌ اسمها شركة قنال السويس. أيضًا ظلَّت تتضخَّم وتتضخَّم إلى أن أصبحت واحدة من أكبر الشركات في فرنسا ثروةً ونفوذًا ورأسمالًا، إلى درجة أنها أقرضت مصر وضمنتها، لا أذكر لدى أحد البنوك، في قرضٍ كان من الضروري الحصول عليه لأمرٍ مهمٍّ ما، وثمن السهم في شركة قنال السويس القديمة التي «أُمِّمت» يعني «صفيت»، ثمنه الآن أضعاف أضعاف ثمنه قبل تأميم القناة. قارِنْ هذا بما حدث لنا، معلش، ولَّا عليه، سيان).

إذن أي توسيع أو تعميق لقنال السويس، هو مباشرة لصالح صناعة وتجارة الدول الغنية، والعائد من الرسوم بعد إتمام هذه العمليات كلها لن يُمثل سوى واحد على ألف أو يزيد من قيمة ما ستحصل عليه تلك الدول نتيجةً لهذا التوسيع والتعميق.

إن المنطق الساري في عالم اليوم «يُحتم» أن تقوم دول العالم الغنية بالإنفاق على التوسيع والتعميق، وكل المشروعات الأخرى الخاصة بتحسين الخدمة في القناة؛ إذ هم المُستفيد الأول والأكبر بكثير، ونحن دولةٌ ناميةٌ مُنهَكةٌ خِزانتها.

على روسيا وأمريكا وإنجلترا وفرنسا وألمانيا الغربية ودول السوق المشتركة واليابان بالذات، يقع عبء هذه المسئولية؛ فهي مسئولية تجاه أنفسهم ومصالحهم أولًا.

وعليهم أن يُكونوا فيما بينهم بنكًا يجمع النقود منهم، ويُنفق منها على توسيع وتعميق القناة. على الأقل، لن يحفروها بعظامهم كما فعل أجدادنا، ببعض البعض من

نقودهم، وببعض البعض أيضًا من الدول البترولية المُصدِّرة ذهبها الأسود عبر القناة. وأي كلام غير هذا لا أفهمه مُطلَقًا؟

لا أفهم أن تقرضنا اليابان قرضًا طويل الأجل (يعني على عشرين أو ثلاثين عامًا)، إن شا الله يكون على سبعة آلاف عام، القناة تخدمكم وتخدم مصالحكم، أيُّ تحسين فيها عائد عليكم أولًا. لو تمكَّنتم بواسطة المشاريع أن تجعلوا المركب تعبُر القناة في يومٍ واحد فقط، فالمُعادل النقدي لهذه السرعة سيصل بصادراتكم ووارداتكم إلى أرباحٍ فلكية؛ فاختصار الزمن معناه على الفور تراكُم الأرباح. ماذا يهمُّ الفلاح المصري إذا عَبَرت المركب في يوم أو في شهر أو في سنة؟ فالعائد عليه منها قروش، ٣٠٠ أو ٥٠٠ مليون دولار، قروش في عالم اليوم الذي تكاتَفت الرأسمالية الغربية لإنقاذ بريطانيا حين شعرت أنها مهدَّدة، بإعطائها تسهيلات وإعانات وصلت وستصل إلى بليارات؛ أي ملايين الملايين من الدولارات. ماذا تكون ٣٠٠ أو ٥٠٠، ونحن نعيش في دولٍ يبلغ ربح الشركة الكبرى فيها كل الدخول القومية للعالم الثالث بأجمعه؟

في القناة بالذات، توسيعها وتعميقها، لا يمكن إبقاء بُرقع الحياء مُسدَلًا هكذا كما أسدلناه طويلًا. وبالعلني هكذا، إذا كنتم تريدونها واسعةً عميقة تختصر الأسابيع إلى ساعات فاعملوها أنتم، بل وفوق هذا علينا نحن أن نربط رسوم القناة بسعر البترول، بحيث كل ارتفاع في السعر يُقابله ارتفاع في الرسم؛ فنحن لسنا مُتفرجين، ولن نبقى مُتفرجين على العالم تتدفَّق فيه الأموال والأرباح، ونملك نحن شريانها الحيوي، ولا نحظى ببعض البعض مما يتدفَّق كالموج الهادر من أرقامٍ تجاوزت أرقام السنوات الضوئية.

لقد ظللنا نخجل من الخواجات مرة، ومن أولاد العمومة مرة، ومن هذا مرة، ومن ذاك مرة، حتى لم يعُد للخجل معنًى إلا السذاجة. والمصري يتساذج، هذا صحيح، ولكنه أبدًا لن يظل ساكنًا حتى يصبح فعلًا وبحق وحقيق ساذجًا.

كلامٌ «رجعي»

العائد إلى القاهرة بعد غيبة ولو قصيرة لا بد أن يُفاجأ بشيء لا يمكن أن تراه في أية عاصمة في العالم، المشهد هو هذا الكم الكبير من الإعلانات عن المسرحيات والأفلام والمُطربين والمُطربات والراقصات وأماكن وكازينوهات اللهو. في الخارج تجد إعلانات أيضًا عن الأفلام والمسرحيات، ولكنها جزءٌ ضئيل جدًّا من الإعلانات عن الشركات والمؤسسات الكبرى والبضائع التي تُنتجها تلك الدولة.

وإذا أخذنا الإعلانات كمقياس لنوع الإنتاج، فمعنى هذا أن أهم إنتاجنا في هذه الفترة هو اللهو؛ ولهذا أنا أضحك في سرِّي حين أقرأ عنوان الصفحة الثانية من الأهرام، وهو «بعيدًا عن العمل» وكأننا فعلًا مُنهَكون إلى درجة قطع النفس في العمل.

والحق أن بيان الدكتور جمال العطيفي في مجلس الشعب حول السينما، وإن كان قد جاء ردًّا على استفسار من الدكتور سامي أباظة، إلا أن البيان جاء وكأنما يُعبر عما يجيش في نفوسنا جميعًا تجاه هذا الفن المُفترى عليه في بلادنا، وهو فن السينما، وإذا كان دور المسرح قادمًا بالضرورة فلنقصر كلامنا الآن على السينما.

صناعة أو تجارة أو هنكرة، هذه ليست المشكلة، تشغيل استوديوهات وعمال ونجوم، أيضًا ليست هذه مشكلتكم أو مشكلتي، فنحن إذن اكتشفنا فجأةً أن أحد مصانع معلَّباتنا يُنتج وعن عمدٍ أغذيةً مسمومة، فلا يمكن أن نظل نُنتج لأن علينا أن نُشغل المصانع وأن تروج الصناعة. وكما نحن لدينا هيئةٌ عليا لمراجعة ومراقبة تركيب الدواء نفسه الذي تُنتجه مصانعنا، فمن باب أولى أن نفحص ما قد أصبح أهم في رأيي من مشكلة الدواء والأغذية المحفوظة؛ مشكلة الغذاء الروحي والثقافي، أو ما أُسميه بالغذاء الأمني الذي يُشكل ضمير الإنسان وقيمه ومُثله؛ وبالتالي قيمته في الحياة.

لقد أُتيح لي أن أُشاهد في الأسابيع الأخيرة بضعة أفلام مصرية، لا أُحب أن أذكُر اسمها، وعقب كل فيلم كنت أراه كنت أعود إلى البيت وأتأمَّل ما رأيت. كل فيلم فيه قصة وعقدة ومشكلة هذا صحيح، كل فيلم يُحاول أن يقول شيئًا هذا صحيح، ولكن مشكلة أفلامنا لم تعُد هي: ماذا قصتها؟ أو من كاتبها؟ أو ماذا تُعالج؟ المشكلة الحقيقية أن كثيرًا جدًّا من تفاصيل عرض القصة ومن المواقف ما يُسمُّونه بلغة السينمائيين هذه الأيام بـ «التوابل»، ومفروضٌ أنها لفتح شهية المُتفرج، ولكن المُتمعن في هذه التوابل الفاحص لها يجد أنها ماء نار كاوٍ يُذيب أصلب القيم، ويُجرد الإنسان من إنسانيته. ولأن المرأة تحظى بقدرٍ كبير من اهتمام أصدقائنا السينمائيين باعتبارها مصدرًا للشباك، فإن هذا الماء الكاوي يتولَّ فيلمًا بعد فيلم، وتفصيلةً وراء تفصيلة، ومشهدًا وراء مشهد، يتولَّ عملية غسيل مخ (آسف أقصد توسيخ مخ) كامل، ليس فقط لشبابنا وسيداتنا ورجالنا، ولكن — وهذا هو أخطر ما في الموضوع — لجمهور السينما الرئيسي الآن، وهو فتياتنا الصغيرات وأطفالنا وصِبياننا، أولئك الذين لم تتكوَّن لديهم بعدُ نواة بعض القيم التي قد تتكفَّل بالوقوف في وجه ماء النار هذا.

زمان حين لم يكن هناك سينما أو تليفزيون أو إذاعة أو صحافة، كانت الأُسرة تتولَّ عملية «تربية» الطفل، والتربية ليست هي التأديب كما قد يعتقد البعض، التربية هي تكوين جهاز ضميري داخلي للطفل، أو على الأقل مساعدته على تكوين هذا الجهاز. أما الآن فإن أجهزة الإعلام وأصدقاء الطفل أو الطفلة يتولَّون على الأقل ٩٠٪ من عملية التربية. ولأنهم بالطبع ليس لديهم الخبرة فإنهم يستوردون هذه الخبرة، وينقلونها من هذه الأجهزة الخطيرة جدًّا. وأنا لا أقول إن مصر وحدها هي المُصابة أو بلادنا العربية، إن المرض أصبح عالميًّا وخطيرًا، ونتيجة لأفلام الجريمة مثلًا في أمريكا، فإن الأجيال الجديدة «صدَّقت» الأفلام والحلقات، وأخذت تُزاول الإجرام وكأنه شيءٌ عادي تمامًا، والبركة بالطبع في التليفزيون والسينما.

مرَّ على ذهني هذا كله وأنا أقرأ حكايةً عجيبة فعلًا، أقرأ خطابًا لوليٍّ أمر تلميذة في إعدادي تُناقش أباها في حقها أن تركب مع أي رجل عربته الخاصة «ليُوصلها» إذا أعوزتها المواصلات، وحين حاول أبوها أن يُناقشها، أسرعت وأحضرت له زميلة صباحية كتب فيها أحد الصحفيين في «عاموده» «الخاص» رأيه، الذي يُسفه به رأي ضابط بوليس الآداب الذي أعلن أن مسألة ركوب الفتيات في العربات الخاصة مسألةٌ لا بد أن نتوقَّف عندها، بل ونمنعها؛ لأن في هذا أكبر جناية على الفتيات، وبالذات الصغيرات منهن،

واختلاط الحابل بالنابل، والمُحترفات بالهاويات. اتَّهم ذلك الزميل الصحفي الضابط بأنه يفكر تفكيرًا رجعيًّا، وأن سائق التاكسي، وبالطبع في هذا مغالطةٌ كبرى، فسائق التاكسي «شغلته» هي هذه، ولكن الأفندي أو الشاب الذي يُركب فتاة أو فتيات ربما لا يكون يفعل هذا لوجه الله، أو لحل المشكلة، أو من أجل أكل العيش، قطعًا هناك نسبةٌ كبيرة ستفعل هذا لأسبابٍ أخرى. وصحيحٌ أن المشكلة في الأتوبيسات لا تقلُّ سوءًا، حيث تنحشر نساؤنا وسط أكوام الرجال، وحيث الجنس الجبان يفرضه التكدس فرضًا؛ مما أقترح معه احترامًا لأجساد نسائنا أن تُخصَّص أتوبيسات بأكملها للسيدات وأخرى للرجال، أو نُلغي حكاية الدرجة الأولى تمامًا، ونجعل نصف الأتوبيس الأمامي للسيدات يصعدن إليه من الباب الأمامي، والنصف الخلفي للرجال يصعدون إليه ويهبطون من الباب الخلفي. فما يحدث في أتوبيساتنا أشد دمارًا لنفس المرأة والرجل من أفلامنا ومسرحياتنا؛ فهو يُفقد الإنسان أو الإنسانة السيطرة على جسده ليصبح مباحًا، وقد يُستباح مرة ويغضب، ولكنه وبالقوة وبالحياء ورغمًا عنه يُغتصب اغتصابًا، ويجعل من المرأة إنسانة قطعت نقطة الوصل بين إرادتها وجسدها، فخلاص، انتهت.

نعود إلى المناقشة التي دارت بين الأب وابنته؛ فقد ردَّت على أبيها بقولها إنه «رجعي»، ما دام الصحفي صاحب القلم قد كتب هذا، واتهم هذا الاتجاه بالرجعية؛ إذن الصحفيون وكُتاب السيناريو ومُقتبسو المسرحيات والمُخرجون هم الذين «يعلمون» و«يُربون» هذه الأجيال الجديدة.

وإني أريد أن أسأل ذلك الزميل الصحفي: ماذا يقول لابنته التي في إعدادي (يعني سنها ١٢–١٣ سنة) إذا جاءت لتطلب منه «حق» الركوب مع الرجال في عرباتهم الخاصة؟ هل سيُوافقها؟ بل لا أقول ابنته، إنما لو جاء ابنه الولد وفي هذه السن يطلب منه هذا، ويتهمه بالرجعية لأنه حال بينه وبين اعتداء جسدي قد يقع عليه فيُفسد حياته كلها.

في الواقع لقد ضايقني كثيرًا أن يُرسل هذا الأب برسالته إلى بريد الأهرام؛ فمعنى هذا أنه أبٌ عاجز لا يُزاول دوره، لم يشرح لابنته المشكلة، لم «يحزم» الموقف معها (وبالمناسبة فإن أحدث طُرُق التعليم في إنجلترا أعادت عقوبة الضرب، بعدما ثبت أنها أنجح وسيلة في بعض الأحيان لأن «يُدرك» الطفل أنه أخطأ فعلًا).

ولكن الأب المصري «رخرخت» قبضته كثيرًا؛ فالحياة صعبة تمامًا، وهو مُثقَل بمطالب الأسرة الاقتصادية، والأجيال مُتوثبة إلى حياة رفاهية واستمتاع، والأفلام والمسرحيات «على ودنه» تضرب على هذا الوتر، وتُشجع الأجيال الجديدة على الثورة على العقليات «القديمة»،

وكأن الأسرة نفسها أصبحت من مخلَّفات الماضي البغيض، في حين أنها كانت وستظل أهم مناخ لتربية إنسان.

وهذا كلام ستحمله بعض الأجيال الجديدة على أنه كلامٌ «رجعي»، مثل تلك الطفلة التي تريد أن تُجرب لعبة الركوب مع الرجال في سياراتهم (مش لسه بدري شوية، مستعجلة على إيه)، وكأنما الحديث عن السلوك أو الضمير أو منع الامتهان الجسدي — وليس منع الحب — مسائل رجعية، وكأن التقدم هو التحلل ولا أقول الانحلال؛ أقصد التحلل من أي منطق أو قيمة أو ارتباط. من قال هذا؟ قالته كثير من أفلامنا، سواء وهي تقصد أو دون أن تقصد. لقد دخلت فيلمًا أخيرًا لا أريد أيضًا أن أذكُر اسمه، كانت المرأة فيه تُستعمل بالدور وكأنها مرحاض. أي امتهان لكرامة نسائنا وبناتنا؟! أي قذارة؟! أي تخلف عقلي مَهين؟! أي رجعية؟! أجل، رجعية تشلُّ القشرة الحضارية التي أضافها الإنسان إلى عقله خلال آلاف السنين، والتي تعلَّم في أثنائها أن يحترم نفسه وجسده، وأن كرامة جسده من كرامته، بل هي بؤرة كرامته، وأن بيع الجسد أبشع عمل ممكن أن يرتكبه الرجل أو المرأة في حق نفسه أولًا؛ فهو إذا استهان بجسده، كما قلت هذه الاستهانة، فأية قيمة تبقى؟ وما معنى أية قيمة إذا كان جسده بلا قيمة؟

أكان لا بد يا ذلك العام؟!

ويبدو أن «قلبة» العداد السنوية، اقترابها ثم حدوثها، تترك بصماتها على نفوسنا البشرية؛ انقباضٌ ما، إحساس أنك في قبضة زمن لا يرحم، وأنك مع هذا ضائع، شعورٌ عميق أن الزمن يتحرَّك ضدك وأنك لا تتحرَّك معه، وربما من أجل هذا قال صاحب الموَّال القديم: آه يا زمن.

ولكن الانقباض هذه المرة راجع إلى الحادثتَين المُؤلمتين اللتين أبى عام ٧٦ إلا أن ينتهي بمائة وخمسين مصريًّا تلك النهاية البشعة الفاجعة، حرقًا في الجو وفي البحر، أشلاء انصهرت مع الفولاذ والبترول. ظللتُ الأيام الطويلة الماضية ألوك الفاجعة وتلوكني، وأتصوَّر أن ما حدث للباخرة باترا وللطائرة البوينج ممكنٌ أن يحدث لنا كلنا؛ ذلك أننا في عالم لم يعُد يرحم الخاطئ أو المُهمل أو المُتكل على المجهول ليُنقذه. في حادثة الطائرة البوينج، كان واضحًا لكل ذي فهم أن قائد الطائرة لم يكن على درايةٍ كافية بالظروف الجوية لمطار بانجكوك، ولا بجغرافية المطار وما حوله. وقد سألت بعض العاملين في مصر للطيران عن تشغيل الطيَّارين على الخطوط المختلفة، فأجابوا بأن الشركة تتبع نظام الـ Shift؛ أي إن الطيَّار يقضي فترةً ما على خط لندن ثم ينتقل إلى خط الشرق الأقصى ثم الخط الأفريقي وهكذا. وقد تأمَّلت الحكمة في هذا النظام فلم أجد به أدنى حكمة؛ فأنا شخصيًّا حين أكون بالخارج وأريد العودة للقاهرة أختار دائمًا شركة مصر للطيران؛ لعلمي أن طيارها مصري، وأنه لهذا السبب سيكون مُلمًّا تمامًا بجغرافية مطار القاهرة؛ فمعظم كوارث الطيران تحدث بقرب الهبوط، وفي أحيانٍ قليلة جدًّا عند الإقلاع، وسبب حدوثها عند الهبوط هو الجهل بجغرافية ومرتفعات ومنخفضات المنطقة المُحيطة بالمطار؛ إذن الطيار ومُساعدوه لا بد أن يكونوا على درايةٍ تامَّة بخط الطيران الذي

يعملون عليه، والدراية لا تأتي إلا بالخبرة والمعرفة والإدراك، ونظام التغيير هذا لا يُتيح هذه المعرفة الكافية، وتكون النتيجة أن نستيقظ على كارثة كالتي حدثت.

إنها نفس الكوارث التي تُصيب اقتصادنا أحيانًا وتُصيب مصانعنا؛ عدم الدراية وعدم الخبرة، والقرارات الفورية غير المدروسة، وانعدام الخطة والحكمة من الخطة.

الحادثة الثانية مأساة باترا، والمساكين من تجار الشنطة والحُجاج الذين غرق منهم ٩٥ راكبًا، على حين لم يُصَب أيُّ بحَّار من الباخرة بخدش. كيف يترك القبطان عمله كقبطان ويذهب كالفدائي يُطفئ النار بنفسه؟ إن لحظة اشتعال النار في باخرة كلحظة الدخول في معركةٍ بحرية رهيبة تحتاج من قائد الباخرة إلى سيطرةٍ كاملة حاسمة باترة على بحَّارته وعلى ركَّابه، فكيف يترك القائد موقعه هذا ويذهب ليُطفئ النار بنفسه، وتكون النتيجة أن تحدث — بغياب القائد — هذه الفوضى الضارية التي ذهب ضحيتَها هؤلاء المساكين الذين صارعوا الرعب والنار ليُنقذوا بضاعتهم، فاستشهدوا فداءَ لقمة عيش يابسة؟

صحيحٌ أن قبطان الباخرة أخطأ بتركه موقع القيادة، ولكنه كان شجاعًا، وعُذره أنه كان حديث العهد بالخدمة وربما بالقبطنة، ولكن هناك قبطانًا آخر شجاعًا أريد أن أحيِّيه، قبطان روسي يقود ناقلة بترول عليها ٣٠ ألف طن بترول قابلة للاشتعال، إلى درجة أنهم يُحرِّمون التدخين تمامًا فوق سطح الباخرة، هذا الرجل سمع الاستغاثة، وغامر بشحنته الرهيبة مُقتربًا من باخرةٍ تحترق وعُرضة للانفجار؛ وبالتالي عرَّض باخرته ونفسه وبحَّارته وحمولته للنسف الكامل من أجل أن يُنقذ أرواح الركاب المصريين، وفعلًا نجح في إنقاذ ٢٠٩ ركاب وبحَّارة.

تحية لك أيها الروسي الشجاع.

مش قوي كده

إحنا ما لنا مزنَّقينها على نفسنا قوي كده ليه؟

الله؟

ما تبحبحوها شوية.

ده كده يبقى الموت أرحم من الحياة.

فعلًا.

أنا قادم من بيروت، وبيروت في حد ذاتها «دولة» تختلف عن لبنان؛ فالأصح أني قادم من دولتَي بيروت ولبنان. وطبعًا جميعنا نعرف كم البشاعات التي جرَت في حرب لبنان الأهلية وغير الأهلية، ولكنني لم أُصدق نفسي. أنا واقف في «باب إدريس» الحي الذي دُمِّر كله بقذائف ميدانية لا تُستعمل إلا في حرب الصحراء والغابات. هنا منذ أشهُر قليلة فقط كان الناس نازلين ذبح في بعض، واليوم هؤلاء هم الناس، انتهت الحرب وكأنها لم تكن. هذا الشعور دفعني للبقاء أكثر من نصف ساعة في شارع الحمراء أتأمَّل حكايتنا إحنا. لقد بدا لي فعلًا أن الشعب المصري شعبٌ غريب في بابه، فريد في نوعه وخصاله، ومن أهم مُميزاته أنه لا يعيش الحياة ليستمتع بها مثلما وهبها الله له وكافأه، ورفعه من مرحلة العلقة إلى الكتلة الهلامية الفاقدة المعنى إلى الإنسان العظيم الرائع، القادر على التدبير والتفكير والفرح والحزن والعطف والحب، أول المخلوقات الواعية بالحياة وبالكون وبالأفكار؛ إذن الحياة الإنسانية قيمةٌ كبرى وعظيمة، وإذا لم يُدرك «الإنسان» هذا لا يكون قد فاته نصف عمره، ولكن يكون قد فاته عمره كله؛ أي كأنه ما عاش. ونحن في مصر لا نعيش، كأننا ما جئنا إلا لنذهب، ونقضي الحياة مجرد «زمن» يفوت بالطول أو بالعرض إلى أن تأتي النهاية.

لا يا إخواني.

المسألة ليست كذلك أبدًا.

تعالوا بنا نبدأ من أول وجديد.

الذى في يده شغل يتركه، الذي عنده ألمٌ يصبر عليه، المُفلس المُتأزم المريض الماشي بلا هدف، يترك هذا كله ويقف معي لحظاتٍ قليلةً نتأمَّل فيها معًا حكايتنا.

فالمسألة زادت عن حدها تمامًا.

والحياة عندنا أصبح الموت نفسه أهم منها بكثير، نحتفل به ونُقيم له الشوادر، ويُلعلع صوت المُقرئ، وتُوزَّع القهوة والماء المثلَّج.

هيصة.

فقط حين يموت الشخص منا نُدرك مدى خسارتنا فيه.

أما وهو حي فهو مثلنا مثل حياتنا لا معنًى له بالمرة.

أن نحيا ونُحب الحياة وهي الميزة الفريدة للإنسان، مسألةٌ غير واردة عندنا بالمرة؛ ففعلًا نحن لا نحيا. إننا نُنفِّذ الحياة فقط، وكما قلتُها مرة كأننا موظفون لدى الحياة، ولسنا أحياءً فعلًا وشعورًا وإحساسًا عميقًا، واختلاجة قلب ورقة أمل. واقفٌ في وسط بيروت كما قلت منذ أيام، هذه هي المدينة التي اقتتل فيها الناس، ومات على أرضها عشرات الآلاف. غير معقول. لقد كنت وأنا ذاهب إليها وجلًا، أتصوَّر أني لا بد أن أحمل معي «كلاشنكوف»، وأن الموت سيكون مُتربصًا لي في كل خطوة. كنت أعتقد أني ذاهب إلى مهمةٍ فدائية، ذاهب إلى غابة لا يزال الناس فيها يأكل بعضهم بعضًا.

وصحيح لقد صادفت كثيرًا من المرارات الفردية الناتجة عن فقدان أخ أو قريب، ولكن هذه كلها كانت أشباح الحرب التي دارت، وصحيح أني صادفت تحت الأوضاع العادية جمراتٍ كامنةً ربما للصراعات في المستقبل، ولكن الأمر المُذهل لي أني وجدت مدينة «حية»، حية بكل معنى الكلمة، الحياة تمضي وكأن شيئًا ما كان، وكأن شيئًا لم يكن، وكأن شيئًا لن يكون؛ التجارة شغالة، المحلات تفتح، كل شيء عاد ويعود بسرعة البرق، حتى البرق والتليفون كان موجودًا في أثناء الحرب، وكان الاتصال من الممكن إجراؤه حتى بين طرفَي القتال، حتى حركة البناء في المدينة كانت قائمة، والبيوت تندكُّ بفعل القذائف. ولبنان مأساة، وأوضاعه مأساوية أكثر، ولكن الشيء الإيجابي في هذا كله أني لمست في شعبه هذه الحيوية النادرة المُتدفقة، الحيوية التي تنتزع الحياة انتزاعًا ولا تنتظر أن تأتيها الحياة، وأنا واقف في قلب مدينة تقريبًا بلا حكومة وبلا بوليس؛ فالناس هنا لا تعتمد على الحكومة في حياتها وقدرها، وكأنما كلما كبر الشعب صغرت الحكومة، والعكس صحيح.

وهنا تأتي مأساتنا نحن المصريين. إننا نفخر دائمًا بأننا أول شعب أقام حكومةً مركزية على سطح الأرض، حكومة عمرها سبعة آلاف عام، حكومة نعتمد عليها في كل شيء، وهي قلبنا النابض إذا خفَت نبضها خفَت نبضنا، إذا صحا صحَونا، وإذا نام نمنا، إذا ارتبك ارتبكنا، وإذا دخل في أزمة دخلنا معه فيها، وظللنا مُتأزمين بالسنوات إلى أن يخرج منها.

وهذا وضع قد يكون له ميزاته، ولكن عيوبه أخطر وأكثر؛ فالحكومة موظفون منا، وإذا احتاجت إلينا وجدتنا أكثر حاجة إليها. وأنا أعتقد أن الخروج من أزمتنا الوجودية هذه لن يتم إلا بشعبٍ حي؛ فلن تحيا الحكومة إلا بحياة شعب قرَّر أن يحيا. أنا أعرف، كما كلنا نعرف، أن هناك آلاف الحُجَج التي تُلقي اللوم على هذا أو ذاك، ولكن الأمر أولًا وأخيرًا هو أمر حياتنا نحن، والعمر واحد، والعمر يمضي، والحياة كما قلت لا بد أن تُنتزع انتزاعًا، حتى المتعة، والمتعة ليست مسألة سلبية تجلس أمام التليفزيون وتنتظر مسرحية تُقهقه عليها، المتعة أن تُخطط أنت للمتعة، وتُنفذ ما خطَّطت، وتنتزع المتعة من حياة لا متعة فيها.

كانت الحرب على أشدِّها في بيروت والتجارة شغالة، رغم أنف القنابل، والتصدير والاستيراد قائم، والحياة مستمرة، وهذا هو الشيء المهم؛ أن نُقاتل ونحن نحيا ونعيش في سلام ونحن نحيا، ونمرَّ بالأزمة ونحن أحياء، ونخرج منها أحياءً أيضًا مستمرين في الحياة. حالة، ليست حالة اللاسِلم واللاحرب، ولكنها حالة اللاحياة واللاموت، وهو الشيء القاتل حقًّا.

بودي أن نُفيق فعلًا ونغرس أظافرنا في عمق الحياة، وفي عمق معوِّقات الحياة، ونُقيم نحن بأيدينا حياتنا، حينئذٍ يحيا الموظفون، وتحيا الإجراءات، وتحيا الحكومة المركزية أعرق حكومة مركزية في العالم؛ لنحيا الحياة باستمتاع حتى ونحن في قلب الأزمة، ننتزع مُتعتنا انتزاعًا، ولنكفَّ عن هذا التزمُّت المَقيت الذي قيَّد حياتنا إلى درجة لم نعُد نتحرَّك فيها. الحياة قتالٌ مستمر، حتى الذي يريد أن «يُهلس»، فليُهلس بقتال وبإرادة، وليتحمَّل عاقبة تهليسه بشجاعة وبقوة. هكذا الناس يحيَون في الدنيا. ونحن أربعون مليونًا، تضخَّمنا وكأننا الحياة حين صارت إلى ديناصورٍ كبير غير قابل للحركة؛ وبالتالي غير قابل للحياة، فانقرض الديناصور من على سطح الأرض. نحن ديناصورٌ هائل ممدَّد في خيطٍ رفيع من وادٍ ضيِّق لم يعُد يستطيع أن يتحرَّك من كثرته ومن اعتماديته ومن اتكاله، وإذا لم نتحرك مِتنا، فلنتحرَّك.

الحركة الفنية المُوازية

دوشة، طنين في أُذني وعيوني، وإحساس أني في زفَّة مولد ليس لصاحبه اسم، أو ليس له صاحب، ملاحق فنية كثيرة، وأبوابٌ كبرى في الصحف والمجلات عن المسرح والسينما، الأذواق والتليفزيون والثقافة، ولا ثقافة ولا سينما ولا إذاعة ولا تليفزيون، أسماء عشرات ومئات من أسماء مُمثلات ومُمثلين وكُتاب ومُخرجين ومُهندسي صوت وتسجيل؛ والنتيجة «ضجة ولا أرى طحنًا». لو كنت شديد الثقة في المُشرفين على وسائل الإعلام في بلادنا، لَقلتُ إنه من عمل مهندس خبيث قدير، يريد أن يُغرقنا في كومةٍ هائلة من القمامة أو التفاهات، حتى ننسى النظافة، وننسى الفن، ونتعرى، ونتكرع ونتسول أشياء نسرقها من الغرب والشرق، وننهبها ونكتب عليها باللون الأبيض: قال عنه النُّقاد إنه أعظم عمل فني تم في المائة عام الأخيرة.

ما الحكاية أيها الناس؟ الحكاية في رأيي أنه نمَت في السنوات الأخيرة حركةٌ فنية «مُوازية»، أو اسمها «سوق فني أسود (أسود حقيقي)»، تكون بين العاملين في الصحافة وغيرها، يُعدُّون البرامج، ويُعدُّون النجوم والنجمات، ويُعدُّون السيناريوهات والحلقات، معدون فنيون وغير فنيين، وجُلاس على قهوة الفن، وعلى رأي المثل: «شيلني وأنا اشيلك.» وخد يا شعب يا مصري عكازة اطفحها من ريق النوم إلى تثاؤب النوم، لا فكرة فيها ذرة ذكاء، ولا ذكاء فيه أية لمعة، ولا حتى كلمة حوار تصلح أن يقولها فمٌ بشري، إنما هي مأمأة قرود وعوعوة كلاب وضجة؛ ضجة عالية وكأنها صادرة من مائة فرح ومأتم، وكله بالميكروفونات، وكله على أعلى ارتفاع. إن جدران القاهرة مغطَّاة لآخرها بالإعلان عن هذا الطفح الفني الذي كان جديرًا بأن يخجل أصحابه من أنفسهم (وإذا بُليتم فاستتِروا)، وإذا بُليتم فلا تصنعوها حلقات في التليفزيون. ويا أستاذ نور الدمرداش يا مُعلم الفيديو الكبير، كيف أباح لك ذوقك الفني الذي أنتج عشرات الأعمال الهائلة أن تُنتج وتُخرج وربما

تُؤلف هذا الشيء المقزِّز الذي يعرضه التليفزيون على هيئة حلقات، من كثرة اشمئزازي منها لا أذكُر لها اسمًا، بل حتى لم أجد لها اسم مؤلف؟ الموقف الذي كان يمكن أن يُقال في كلمةٍ مختصرة تُغطيه نصف ساعة؟ الفلاحون في مسلسلك أعتقد أنك استوردتهم خصيصًا من اليونان. لأول مرة أرى مُمثلًا عظيمًا كعبد الله غيث كأنه خواجة يُمثل دور فلاح، وما ذنبه والدور مكتوب هكذا؟ بل لا أعتقد أنه مكتوب، أعتقد أنه قبل التصوير يحدث نوع الدردشة، تُسجل ولا يهمك يا عم، أهه كله ماشي، وجمهورنا ما دام يبلع الزلط، أهي حلقات تفوت ولا حد يموت.

ولكن المشكلة أنها حلقات فوق حلقات، وأفلام فوق أفلام، ومسلسلات إذاعية فوق مسلسلات، تتراكم في أكوامٍ هائلة هائفة لتُضيع «العقل» المصري، وأي عقل!

إني لا أعرف محطات إذاعة وتليفزيون في العالم تنفرد بهذا الكم الهائل ممَّا يُسمُّونه «الدراما»؛ أي السباعيات والخماسيات والسهرات والشهريات. لقد ظللت أتساءل عن هذا السر إلى أن ذكر لي صديق ممَّن يعلمون بواطن الأمور، أن «الدراما» هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها للموظفين في التليفزيون أن يتبادلوا المنافع مع المؤلفين ومع المُمثلين، وهذا هو السر أننا فجأةً نجد مسلسلًا يدوم ثلاثين حلقة، مفروضٌ أن يخرج بها جمهورٌ هائل كجمهور التليفزيون وقد تغيَّر فنيًّا وذوقيًّا وأخلاقيًّا، حتى مسلسل كهذا يُقدم لمؤلف لم نعرف له من قبل اسمًا، ولا جرَّبناه، ولا ظهر له عمل يُنبئ عن موهبةٍ ما، لماذا يختار المُخرج عمله الذي يعرف أنه غثٌّ وتافه ليفرضه على الناس؟ الله وحده يعلَم.

وكنت أفهم أن هناك مراقبة لمراقبة هذه التمثيليات، ولكن اتَّضح أن المُراقِبين جميعًا هم القائمون بالعمل وبالإخراج، وأن المسائل آخر بوظة.

حتى فيلم مفروضٌ أنه نظيف كفيلم «أفواه وأرانب»، يخرج الناس ليتكلَّموا عن «تمثيل» فاتن حمامة الرائع، وهل الفيلم تمثيل أم أن الفيلم موضوع يُعرَض بطريقةٍ بالغة التأثير، بحيث تنسى أن المُمثلة هي فاتن، أو أنها على الإطلاق مثَّلت؟ إن مجرد إحساسك أنها «ممثلة» عظيمة هو سقوطٌ كبير للفيلم أو للقصة أو للدور.

إنها إذن حركةٌ ثقافية مُوازية بلا حاجة لناقدٍ عملاق، أو كاتبٍ كبير، أو مُخرجٍ فذ، إنما هي (كله في كله وكله على كله وكله من كله) حركةٌ ثقافية مُوازية تجذب إلى أسفل، تجذب شعبنا إلى أسفل، تحطُّ من قِيمه، أو تتكلَّم عن قيمٍ لا تمتُّ إلى حياته أو عصره، حتى كبار كُتابنا جرفهم التيار، فأصبحوا يكتبون القصص لتتلاءم مع السوق المُوازية.

هذا هو المشهد الظاهر من السطح أو من الخارج، ولكن هذا ليس كل شيء؛ فوراء ما نراه من حركةٍ فنية تجذب إلى أسفل، تحوُّلٌ اجتماعي خطير قلب مجتمعنا رأسًا على عقب، حتى أصبح عاليه هو سافله وسافله هو عاليه، واندفعت إلى الوجود طبقاتٌ قادرة على الشراء الباهظ، ولكنها غير مالكة لأي ذوق، وغير مدرَّبة على أي فن، إنما الفن عندها فن الأكل أو فن الاقتناء، أو فن القهقهة العالية الفارغة التي لا معنًى لها.

هذه الحركة الفنية المُوازية تُنتج لهذه الطبقات ما يكفيها ويزيد، وكل بلاد العالم فيها شيء كهذا، ولكن الشيء الذي لا يكاد يُذكَر؛ فالحركة الفنية الحقيقية الأصلية دائمًا موجودة. لا أقول الحركة الجادَّة حتى لا يظن الناس أني أتحدَّث عن العبوس، وإنما الحركة الذكية الخلَّاقة البنَّاءة المُتطورة الزاحفة إلى الأعلى والأرقى والأجمل.

إننا في مصر لدينا جماهير واسعة من هذه الفئة، ولكن لا يوجد فن لها؛ فكما أن الركوب في الأتوبيس بالدراع، والحصول على الشيء من الجمعيات بالزق، فكذلك في سوق الفن، دفع هؤلاء الغلاظُ الشِّداد الناسَ الذين يحترمون أنفسهم ويحترمون ما يكتبون أو ما يقرءون، ما يُشاهدون أو ما يسمعون، يحترمون لذَّاتهم وحواسَّهم وأجسامهم، دفعوهم بعيدًا حتى أصبحوا كالأيتام على مائدة اللئام.

والمسألة أن الحكومة، أو بمعنًى أصح، وزارة الثقافة واقفةٌ تتفرَّج على هذا الوضع، في حين أنه كما أن القطاع العام يدعم السِّلع الشعبية، حتى لا يموت الشعب جوعًا من جشع بعض تجار القطاع الخاص، فكان من المحتَّم أن تمدَّ وزارة الثقافة يدها من أجل الأخذ بالحركة الفنية الأعلى والأسمى وتدعمها؛ ليس فقط لتكفي حاجة أصحاب الياقات العالية كما يقولون، وإنما أيضًا لـ «تُرشِد» الحركة الهابطة الدائمة الجذب إلى أسفل، أو على الأقل تجعل المُتفرج حرًّا أن يرى هذا أو يرى ذاك، أن يسمع هذا أو يسمع ذاك.

دلَّعني يا زغلول!

ببساطةٍ هذا هو عنوان أحدث مسرحية تعرضها مسارح القطاع الخاص في القاهرة، أنا لم أرَ المسرحية طبعًا، ولن أراها، ولا أريد الحكم لها أو عليها، ولكن العناوين في المسرحيات لا تُوضَع عبثًا، إنها قبل أن تشي بمضمون المسرحية، تشي أولًا بتفكير صاحبها أو كاتبها؛ فبربِّك ماذا تنتظر أن تحتوي مسرحية اسمها «احترسي من الرجال يا ماما»؟ بل ماذا تنتظر من عديد من المسرحيات الأخرى والأفلام وتمثيليات السهرة والمسلسلات والسباعيات والشهريات وما أكثرَها وما أروجَها هذه الأيام؟ تُذكِّرني بالبطيخة القرعة؛ تلك التي تتميَّز أول ما تتميَّز بكثرة ما فيها من لب وقلة ما فيها من حَمار أو حلاوة. «واغش» من الأعمال المنسوبة ظلمًا للمسرح وللسينما وللإذاعة وللتليفزيون، وباءٌ كأنه الجرب أو طفح المجاري، رائحةٌ نتنة قبيحة تملأ الأجواء والأمخاخ، وتزكم الأنوف والأذواق.

إنما المشكلة دائمًا أن هذه «الأشياء» تتسرَّب إلى حياتنا تسربًا غير محسوس، ربما لم نُلاحظه، وربما لاحظناه و«طنشنا»، ولكن الأمور فيما أعتقد قد وصلت إلى حدٍّ لا بد له من وقفة؛ وقفة مع هذا التخريب الغريب المُجرم للنفس الإنسانية المصرية.

لقد ظل الإنسان الأول يتحلَّى بأخلاق الغابة، وتحفل نفسه بالنوازع والغرائز والشعور البدائية، إلى أن بدأ يكتشف الرقص، ثم الغناء والموسيقى، ثم المسرح، ثم السينما والتليفزيون؛ ذلك أن الإنسان لو تُرِك لغرائزه فقط، ولنوازعه فقط، وبدافع فقط من القُوى الحيوية الموجودة فيه، لولا تكوينه للجماعة البشرية، ولولا التقاليد التي وضعتها هذه الجماعات لتحيا في سلامٍ داخلي مع النفس، وتُمارس حياتها تلك من خلال مُمارستها للفنون المختلفة، لَظلَّ الإنسان وحشًا بدائيًّا، يقتل الضعيف ويُنافق القوي، ويبيع ولاءه للصداقة وللزمالة وللوطن من أجل قروش أنانية حقيرة. الفن هو السموُّ البشري، ليس السمو بتجاهل الغرائز والهواجس الشريرة في النفس، ولكنه ذلك الذي

يأخذ بيدِ الإنسان ليصبح أقوى من غرائزه وهواجسه الشريرة. الفن هو تربية، أعظم أنواع التربية للنفس البشرية، في حضرته ومسرحه وحضوره، يتطهَّر الناس ويصِلون للقيم العليا، ويتعلَّمون التمدين، ويستمدُّون الطاقة والقدرة على مُواصلة الرحلة.

والفن ليس قيمًا فقط، ولا حديثًا عن الجمال فقط، الفن هو — في نواحيه التربوية — وسيلة يتعلم بها الإنسان سلوكه الأمثل، ومراجعةٌ دائمة للنواقص، ومحاولاتٌ مستمرة للتخلص منها. من هنا جاءت كلمة «البطل»، البطل الدرامي والبطل الروائي؛ فهو ليس ذلك البطل بمفهوم القوة أو العضلات أو العنف الشكلي، إنه بطل لأنه يسلك «سلوك» الأبطال؛ فقد يكون مُحاصَرًا، وقد يكون ضعيفًا، وقد يكون العيب في داخله هو، ولكن الفن يأتي ليُصور هذا البطل في محاولاته — ربما القاصرة وربما العقيمة — للتغلب على نقطة الضعف فيه وقهرها.

والحركة الفنية إذن هي الوسيلة المُثلى لتربية الشعب تلك التربية العظيمة غير المباشرة، بل هي أحيانًا وسيلة الشعب للتثقُّف واكتساب الخبرة والتجربة، هي الضوء القوي يُبدد أمامه الظلمات، ويفتح الباب للأحلام والطموح. لقد دخلتُ كلية الطب لمجرد أن رأيت فيلمًا عن مدام كوري واكتشافها للراديوم، وآلاف وملايين غيري حدثت الانقلابات والتحررات والتصحيحات الكبرى في حياتهم، نتيجةً لأفلام أو لمسرحيات أو روايات شاهدوها أو قرءوها؛ ذلك أننا في حياتنا — بل وحتى في مدارسنا — نتعلم من المثل أكثر بكثير جدًّا ممَّا نتعلم عن طريق المواعظ والخُطب، بل الدين نفسه ليس فقط دينًا وإيمانًا، ولكنه ذلك الإيمان الذي لا يمكن أن يتم إلا بالسلوك القويم؛ الدين المعاملة. واسمحوا لي أن أتوجَّه بهذه الكلمة خصيصًا لذلك الزميل الكاتب الذي يكتب لنا صباح مساء ليُبشر بالقيم التصوفية العليا، وفي الوقت نفسه ليس لديه مانع أبدًا أن يذهب لينتهز فرصة مرض زميل له من كُتاب المسرح، ويستعين بالوزارة وبالمسئولين ليُؤجل عرض مسرحية ذلك المريض لتُوضَع مسرحيته هو. كان بودِّي قبل أن يعتلي المنبر ويلبس مُسوح الصوفي الراهب، أن يُنظف ذاته من تلك الأنانية الطفولية قبل أن يُعلم الآخرين كيف يؤمنون، وكيف يعبدون الله، ولكنه ذلك النوع الآخر من الهلوسة الذي وجدنا أنفُسنا مطحونين بين شقَّيه. فرقٌ كبير بين الدين العظيم الحنيف، وبين الإيمان والمُثل والسلوك، وبين الهلوسة الدينية، خاصة حين تصدُر عن قوم هم في سلوكهم اليومي العادي أبعد ما يكونون عن الدين ومُثُل الدين وسلوك الدين.

ولكن ما العمل وهذا ما انتهت إليه حالنا؛ فُنوننا تقول: دلَّعني يا زغلول، واحترسي من الرجال يا ماما. ومهوُوسونا يُتاجرون بالدين، ويتعالى رصيدهم بالعملة النفطية

يُحلِّقون بنا وكأنما عن عمدٍ يُحاولون أن يصرفونا عن أمور حياتنا الكبرى. حاقت بنا الهزيمة، وذُقنا مرارة النكسة، وناضلنا وكابدنا حتى خرجنا من القُمقم وهم لم يُقدِّموا لنا شيئًا صغيرًا يُساعدنا، أو كلمةً طيبة تأخذ بأيدينا أو تهدينا السبيل، طوال هذا العناء البشع ظلوا يُحلِّقون بنا، ويتلاعبون بالكلمات — وكأنهم حواة — ونحن مغروزون إلى أعناقنا في البلاء.

حسن جدًّا. إنه مأزقٌ آخر من المآزق قُدِّر على شعبنا أن يجتازها، مأزق أن يجد نفسه من هول النكسة في نكبةٍ أبشع؛ نكسة الفن، ولكن هذه المرة نكسة السلوك المَعيب يتجسَّد على خشبة المسرح وشاشة السينما وصفحات المحلات، نكسة الحياة العامة كلها، وقد حفلت بنماذج من أسوأ ما رأت بلادنا في تاريخها الطويل، نماذج لحسن الحظ تمجُّها أجيالنا الجديدة وتنفر منها؛ ذلك أن سلوكها علني وواضح. أما النماذج الفنية فهي التي أخشى منها على أجيالنا وعلى أنفسنا؛ ذلك أنها كثيرة وبالغة الانتشار، وتنخر في صميم الإنسان وقيمه وقدرته على الصمود. إنها كالمرض، كالحامض، كماء النار، تهري وتفتك بتراث شعب عظيم؛ وكان عظيمًا لأنه من بين أشياء كثيرة كان يعتمد في استمراره وقدرته على الوقوف على فنونه الشعبية المختلفة، يبثُّها لواعجه وأمانيه، ويؤكد ذاته، ولكن شكرًا للإذاعات والفنون الصناعية المرئية والمسموعة، آب فنُّنا الشعبي هو الآخر إلى ممات، ولم يعُد هناك من متنفَّس لإنساننا المصري إلا من خلال أقلام زفت، أو مسرحيات زفت، أو رقص أزفت وأزفت. إلى أين تمضون بنا أيها الناس؟ ولنتصوَّر أننا نُدخل أبناءنا مدرسة الفن الكبرى؛ ليرَوا مسرحياتنا وأفلامنا وبعض أقلامنا. لنتصوَّر شعبًا هذا هو حال جامعته وأساتذته ففيفي عبده، ودلَّعني يا زغلول، وخلي بالك من الرجال يا ماما.

كثيرون يقولون إن هذه أعراض الأزمة الاقتصادية، وحين تنزاح الأزمة سنجد هذه «الأعراض» كلها قد زالت، والرُّقي قد عاد مرةً أخرى إلى سلوكنا وإلى نفوسنا. وأضحك كثيرًا — ليس من قلبي — وأنا أسمع هذه الكلمات، وكأن قوةً أخرى غيرنا هي التي ستُخرجنا من الأزمة. للأسف الشديد — ولحسن الحظ أيضًا — نحن القوة الوحيدة القادرة أن تُخرجنا من أزمتنا، والمُعادلة الصعبة هي كيف يستطيع أناسٌ مأزومون مثلنا أن يخرجوا من الأزمة؟ صعبة لأنها حقيقة، وصعبة لأن ليس هناك خيار، فإما نفعلها أو تُفنينا الأزمة؛ ولهذا لا بد أن نفعلها. ويُخيَّل إليَّ أن أولى مهامِّنا للخروج من الأزمة أن نهزَّ رءوسنا هزًّا شديدًا، بل ربما احتاج كلٌّ منا إلى ضربة على رأسه ليُفيق، بالذات ضربة تُوجَّه إلى رأس ذلك الأفندي المحترم الجالس هو والسيدة زوجته وأولادهما يتفرَّجون على

مسرحيةٍ مليئة بالإيحاءات الجنسية الجبانة (وليته الجنس الشجاع)، والذي يُقهقه من حنجرته وكأنما ليؤكد لنفسه أنه يضحك، والمضحوك عليه والمخدوع هو سيادته؛ فما يدور أمامه شيء قبيح إلى درجة تُثير الاشمئزاز والغثيان.

لا بد أن نقف — نحن الجمهور — موقفًا حازمًا ومبدئيًّا ممَّا يُعرَض على أسماعنا وأبصارنا. إن دور الفن قيادي بالحتمية والضرورة، ويكفي أن تنتبه جيدًا إلى أين تقودنا فنوننا الحاضرة؛ إلى هاويةٍ سحيقة، ما في ذلك شك. هي قيادة إذن إلى ضلال، ولا بد أن تُوقَف؛ فهي مهما احتقرناها تقودنا دون أن ندري، وستظلُّ تقودنا فنيًّا وسلوكيًّا ما لم نخترع تلك المقشَّة الكبرى العريضة التي نُنظف بها حياتنا من هذه الآفات الوبيلة.

وإذا كان هذا هو الفن فبلاش فن؛ فالارتداد إلى قيم الغابة أنظف ألف مرة من فنون القوَّادين.

الخنافس أصحاب مصر الجُدد

في زيارتي لقريتنا وجدتُ صديق طفولتي الشيخ محمد إسماعيل ثائرًا. لماذا يا شيخ محمد؟ قال: هؤلاء الخنافس الملاعين وشعورهم الطويلة وترشيحاتهم في الانتخابات. والحق أن المسألة كانت بالنسبة إليَّ خبرًا مُفرحًا جديدًا؛ ذلك أن الشيخ محمد ومعظم أعيان بلدتنا وأجيالها المُتوسطة والكبيرة، كانوا ثائرين على هذا الغزو الشبابي لانتخابات الاتحاد الاشتراكي، وكانوا ثائرين أكثر لأن هؤلاء الشباب يقولون لهم: نحن نعرف أننا لن ننجح هذه المرة، ولكننا لا بد أن نخوض التجربة.

ومن زمنٍ طويل لم أتلقَّ من شعبنا علامة تفاؤل، وتلك كانت في رأيي أول علامة تفاؤل أتلقَّاها؛ ذلك أن الأجيال السابقة قد شربت الكأس حتى الثمالة، وتمزَّقت حربًا وكفاحًا وتطبيقاتٍ اشتراكيةً وسجونًا وانتصارات وهزائم.

وفرحتُ لأنه خلافًا لكل آراء ونظريات واعتقادات الآباء والأجداد؛ فهذا الجيل لم ينشأ سلبيًّا أو ناكرًا للجميل أو مُنصرفًا إلى حياته الخاصة، ولكن ها هو ذا جيل أكثر إخلاصًا للرسالة في رأيي؛ فهو يبدأ حملها وهو لا يزال في سن البراعم، على حين أن الرجل في الماضي لم يكن ليفكر أن يخوض انتخابات أو يُرشح نفسه إلا إذا كان قد وصل؛ وصل في عمره أو في دخله أو في طموحه.

هؤلاء مُبكرون وفي أعمار الزهور يحلمون أنهم ربما لن يفوزوا بثقة الناخبين؛ فالناخبون في معظمهم لا يزالون كالشيخ محمد يعيبون عليهم هذه الشعور المنكوشة

الطويلة، وهذه البنطلونات المحزَّقة، وهذه الأحذية ذات الكعوب العالية، يُفضلون عليهم لا بد هؤلاء «المحترمين» الموقَّرين ذوي المسابح والحوقلات، أو ذوي الفدادين والعقارات، على حين أن هؤلاء لا يملكون سوى شبابهم وقدرتهم على التضحية والحماس.

ظللتُ أناقش صديقي الشيخ محمد في هذه الظاهرة الصحية، التي يعتبرها هو علامة اقتراب يوم القيامة، وعلى حين أنا أرى فيها علامة يأس الشباب أن يقوم بالإصلاح أحدٌ آخر سوى أنفسهم، وبسواعدهم هم يتم التصحيح. لقد اندثرت معظم القيادات القديمة، وانصرفت إلى حياتها الخاصة ومطامحها الخاصة تُحسنها بالحرام أو بالحلال، في حين أن هؤلاء الذين صمدوا ولا يزالون يصمدون، قلةٌ قليلة غير كافية أن تُحرِّك المارد الهائل، وكان لا يمكن أن تظلَّ مصر بلا أصحاب، وكان من المحتَّم أن تندفع الأجيال الجديدة ترث الرسالة ولو في حياة مالكها؛ فهذا هو منطق الأشياء.

لكن الشيخ محمد لا يزال لا يهضم حكاية الشعر الطويل هذا ومعناه، حتى وأنا أُذكره ما كان يحدث له شخصيًّا حين كان أبواه يأمرانه بقص شعره «زيرو»، وكان هو يتحايل ويرشو الحلَّاق حتى يقصه «نمرة ثلاثة»، ألم يكُن في هذا يثور مُغايرًا ويُبشر بثورة إطلاق الشعر؟ وإطلاق الشعر علامة الثورة، وأولها الثورة على أناسٍ يعتبرون أن الاحترام والتأدب علامته الوحيدة هي تقصير الشعر أو إطالته، وكأنما ليس علامته الأولى أن يكون الإنسان صادقًا، وأن يتفق باطنه مع ظاهره، وما يريده مع ما يفعله.

وددتُ لو كان نقاشي مع الشيخ محمد قد أُذيعَ على الملأ؛ ليعرف المُعترضون أنهم إنما يعترضون على سنة الحياة، وليعرف الشباب أيضًا أن هؤلاء المُعترضين إنما يعترضون بقليل جدًّا من الإشفاق، وكثير جدًّا من الخوف على أنفُسهم من جيلٍ مارد جديد، يندفع ومنذ الآن لتحمُّل المسئولية.

الملهاة الثانوية الفريدة

بعيونٍ مفتوحة لتشمل مصر كلها بيتًا بيتًا وحارةً حارة، ومدينة ومصنعًا، وحيًّا وحقلًا، ومدارس خلت أحواشها، بنظرةٍ شاملة ولكنها تُدقق إلى أن تصل إلى كل فرد أو على الأقل كل عائلة، بعيونٍ كهذه أرى مصرنا الغالية، في منظرٍ فريد تحتار من فرط عناصر الضحك فيه أتتأمَّل أولًا ثم تضحك، أو تُفرغ شحنة الضحك أولًا ثم تتأمَّل بعد هذا، أو تصرخ، أو تبكي، أو يحدث لقُواك العقلية خلل؟

وعلى أية حال فلنؤجِّل ما سنفعله إلى أن نعرف ما هي الحكاية؛ إذ الحكاية عن الشباب، أو بالضبط ذلك الجزء من المجتمع المصري الذي يكون ما تحت السابعة عشرة، ولا أتذكر الآن الرقم بالضبط، ولكني أعتقد أنه يكون أكثر من ٥٥٪ في تعدادنا البشري؛ أي هم الغالبية، بل هي الغالبية التي أصبحت «تجرُّ» المجتمع كله وراءها.

ولقد ذكر لي مُنتجٌ سينمائي مشهور أنهم زمان جدًّا كانوا يُنتجون أفلام الشباك لتُرضي مزاج الرجل؛ إذ كان الرجل هو الذي يُحدد الفيلم الذي تختاره العائلة لتراه، ثم اندثر عصر اختيار الرجال، وأصبحت أفلام الشباك هي التي تهمُّ موضوعاتها المرأة؛ لأن المرأة هي التي كانت تُحدد؛ أي تقود العائلة إلى الفيلم الذي يُشاهدونه. أما الآن فإن أفلام الشباك أصبحت تُخاطب مباشرةً مرحلةً ما دون السادسة عشرة، باعتبار أن الأولاد والبنات أصبحوا هم الذين يُرغمون العائلة على نوعٍ ما يرونه من أفلام.

ولا يرجع ذلك إلى تلك الأغلبية العددية التي يتمتَّعون بها الآن، ولكنه راجع أساسًا إلى أن عدد الأولاد والبنات قد ازداد في العائلة ازديادًا يُعتبر طفرةً هائلة، بالقياس إلى جيل أو جيلَين سبقوا هذا الجيل. إن الولد أو البنت أصبح هو المُتحكم في الأم الفارض عليها في النهاية رأيه، وما دامت الأم كانت من جيلٍ مضى هي المُسيطرة الحقيقية على الرجل؛

فالنتيجة أصبحت أن الصبي والصَّبية هما اللذان يقودان العائلة كلها لتحقيق ما يريدان، وطفرت حقوقهما كثيرًا في حين تضاءلت كل المفروضات من الواجبات.

ذلك أننا فعلًا وصلنا إلى مرحلةٍ رائعة من الدربكة التربوية التي تلخبط فيها كل شيء، مثلما تلخبط في أشياء كثيرة أخرى.

ومفروضٌ أن الرجل أو المرأة كالشعوب، تمرُّ بمراحل مختلفة لتصل إلى النضج؛ أي إلى تكامُل ملامح التفرد الخاص للذات، وللوصول إلى القدرة على تكوين الرأي الخاص والنظرة الثاقبة الخاصة، والحل الخاص الذي بمجموعه وبمجموع قدرات أفراده وتفرُّدهم يؤدي إلى ما نُسمِّيه أرقى المستويات الحضارية.

هذه المراحل التي تمرُّ بها الشعوب والأفراد تُشكل نوعَين من السلوك؛ الغالب الأعظم هو النمو التقليدي شبه الروتيني، ولكن لا بد لكي تتمَّ عملية النضج من مراحل تحدُث فيها «طفرة»؛ أي ثورة بالمعنى العلمي الحقيقي لكلمة ثورة؛ فالثورة قفزة أو مرحلة من الحياة لا يمكن اجتيازها إلا بوثبةٍ غير عادية؛ تلك الوثبات التي تحدُث في الإنسان فتُغيِّره «نوعيًّا»، وليس «كميًّا».

إن الوجود البشري يبدأ «ثورة»؛ فالبُوَيضة الأنثوية تظل مجرد خلية خاملة عاطلة إلى أن يتَّحد بها الحيوان المنوي، وكأنما من اتحادهما يحدث انفجارٌ ذري خلَّاق، ومن الخمول المُطلَق تبدأ في البويضة سلسلةٌ مُتسارعة من التغيرات تحدث فيها ولها إلى أن تبدأ تنقسم إلى خليتَين ملتصقتين، أو أحيانًا (في حالة التوءم) مُنفصلتين، وكل خلية منها تظل تنقسم في شبه انفجار ثوري مُفاجئ، لتصبح بعد أيام قليلة ملايين الخلايا التي يبدأ بعضها يتخصَّص، ومن تخصُّصٍ عام جدًّا (أكتوبلازم وأندوبلازم وميزدورم) إلى تخصصٍ خاص يُكون جنين الهيكل العظمي، وجنين الجهاز العصبي والجلدي، وجنين الأعضاء الداخلية، وهكذا.

إذن هذه هي الثورة العظيمة الأولى التي يمرُّ بها الإنسان، وتصنع منه مشروع إنسان لا يلبث أن ينضج، وبتوقيتٍ دقيق مُتكامل بعد تدفُّق الهرمونات في جسد الأم حتى تحين الثورة الثانية الرائعة؛ ثورة يقوم فيها الجسد — جسد الأم — بطرد هذا الكائن الذي تكامل واستوى عُوده فيما يُسمَّى بعملية الولادة، تمامًا مثل الثورة التي تقوم في مملكة النحل إذا وُجدت ملكةٌ أخرى، وتكون لها جيش من الرعايا، ويحدُث العراك بين الملكتَين الذي ينتهي دائمًا بطرد الملكة الصغيرة الجديدة، وخلق «طرد» نحل جديد.

ولكن الثورة الثانية تكتفي بالطرد الجسدي فقط؛ إذ تبقى بين الأم وبين الطفل حبالٌ سرِّية خفية عاطفية ونفسية، بل وحتى مادية مثل «الرضاعة»، والطفولة هي

المرحلة التي يظل فيها هذا الكائن المُنفصل الجديد متَّصِلًا مُعتمدًا على الكائن الأصلي الأم، ويظل هذا يحدث إلى سن المراهقة.

حينذاك تحدث الثورة الثالثة في حياة ذلك الإنسان؛ ثورة الانفصال التام عن الأم أو عن العائلة أو بالضبط عن الوالدَين. ولكي تحدث هذه الثورة يستلزم الأمر بالضرورة قوةً طاردة عنيفة، تفصل بين الطفل الذي نضج وكبر وأصبح من المستحيل أن يظل عالة على أمه أو والدَيه. هذه القوة الطاردة العنيفة لن تأخذ شكل الأم تطرد طفلها من بطنها على هيئة تقلُّصات و«طلق» عنيف، وإنما تأخذ شكل تقلُّصات نفسية عنيفة (مصحوبة أيضًا بتغييراتٍ هرمونية كالتي تحدث للأم تمامًا في حالة تهيُّئها لعملية الولادة)، ولكن هذه التقلصات العنيفة يكون هدفها طرد الأم هذه المرة أو الأب أو الاثنين معًا من نفسية الطفل الذي كبر ونضج، فأصبح من المُشلِّ لحركته أن يظل مُلتصقًا بأمه أو بوالدَيه أو بعائلته أو بالقائمين على أمره في وطنه أو بلده. هي إذن عملية طرد مُعاكسة للمجتمع من نفس الشاب المُراهق؛ المجتمع بكل ما يسُوده من علاقات وقيم وأنماط، المجتمع حتى لو كان صالحًا وطيبًا ولم يُقدم للشاب أية إساءة؛ إذ الهدف هو تكوين «ذات» مُستقلَّة، ولكي تكون مستقلة لا بد أن يكون لها أحلامها الخاصة، وسلوكها الخاص، وتمرُّدها الخاص، وكرهها الخاص لكل ما هو كائن. ثورة الشباب إذن (أو ما نُسمِّيه المراهقة) هي الثورة الثالثة الأخيرة في حياة الإنسان منا؛ تلك الفترة التي تُحدد ملامح شخصيته، والتي تضع اللمسات الأخيرة لشكل الرجل القادم المُقبِل؛ إذ سيكون على هذا الرجل أن يُحقق كل أجنَّة الأحلام والرغبات التي تتكوَّن في نفس هذا الطفل، الذي بدأ فجأةً يستطيل على الأرض ويصبح له مظهر الرجال.

ولقد ظل المجتمع فترةً طويلة وهو جاهز بهذه الحقائق كلها، يُطالب الطفل أن تكون له قيم وأخلاق الرجال السائدة، وإذا عنَّ له أن يُراهق ويقوم بثورته المهمَّة الثالثة، فعَلى أبيه بالذات تقع مهمَّة أن «يُقوِّم» فيه هذا «الاعوجاج»، في حين أنه ليس سوى عملية «الاستقامة» الحقيقية لشخصية ذلك الكائن الحي الجديد.

ومعظم أمراض الرجال لا تنشأ فقط عن طفولةٍ تعِسة محرومة قضَوها، وإنما أيضًا من معاملةٍ بالغة السوء والقسوة وعدم الفهم عُومِلوا بها، وقُوِّمت بها ثورتهم الثالثة ثورة المراهقة، وما هي بمراهقة، وإنما هي في الحقيقة عملية تأصيل لكائنٍ كان قبل هذا مثله مثل الجميع، وإنما بثورته الثالثة يؤكد وجوده الخاص الذي سوف يحمل بصماته الخاصة إلى الأبد.

ويُخيَّل إليَّ أننا في بلادنا العربية أكثر شعوب الأرض جهلًا في مواجهة هذه الثورة الثالثة، إما بإجهاضها تمامًا، وقتل الشخصية المستقلة للرجل المُقبِل، وإما بالاستسلام تمامًا لها بالتدليل والتلبية لكل رغبات هذا الرجل المُقبِل، لم نُدرِك بعدُ أنها ليست مسألةً هينة، نُسمِّيها فقط مشاكل المراهقة، وما هي بمشاكل، وما هي بمراهقة، وإنما هي ثورة ميلاد ثالثة لخروج الفراشة من الشَّرنقة، إذا قُوبِلت بعنفٍ أشد مما يجب اختنقت، وإذا قُوبِلت باستسلامٍ ضعيف خرجت غير قادرة على تحمُّل مشقَّة المشوار الطويل؛ مشوار الحياة.

أجلُّ عيب هذه الأبوة أو الأمومة فينا، أنها إما أبوة نُحاول أن نتلاشى بها كل ما وقع علينا من قسوة ونحن صغار، فتترك للطفل ثم للصبي الحبل على الغارب، وكأنه كما يقولون «حيلة أمه وأبوه»، أو نفعل العكس تمامًا، وبقسوةٍ ضارية، نُحاول أن نفرض على الطفل ثم الصبي أو الصَّبية من أبنائنا وبناتنا نموذجًا حديديًّا رسمناه لهما، إما استيحاءً للنموذج الذي نشأنا عليه، وإما تصورًا مُتزمتًا لما نعتقد أنه الصحيح في طريقة التربية.

ولكن بمُلاحظاتي الشخصية بدأتُ أرى الحالة الأولى هي التي تستشري وتعمُّ، حتى أصبحت مشكلة كل أم وكل أب أن «يُخلف» والسلام. ماذا يفعله بهذه «الخلفة»؟ كيف يُربيه؟ كيف يُواجه تصرفاتٍ ونزواتٍ ومواهبَ كامنةً فيه هو المسئول عن وجودها؟ فتلك قضية لا أهمية لها بالمرة.

النتيجة أن لا تربية الأمهات موجودة في البيت، وطبعًا في المدرسة؛ إذ هي لم تفقد فقط دورها التربوي، وإنما فقدت بالأعداد الكبيرة دورها التعليمي، حتى بتُّ أعتقد أن كل أجيالنا تحت ١٤ سنة تُربي نفسها بنفسها، تُربي نفسها «شيطاني».

وكلمة التربية، ولا أدري لماذا، مقرونة في أذهاننا بالزجر أو بالإكراه أو الجبر على سلوك منهج بعينه في الحياة، في حين أنها في حقيقتها يجب أن تُستبدل في أذهاننا بكلمة «الرعاية»؛ فالمُربي هو أساسًا جنايني دورُه أن يرعى الياسمين حتى يُزهِر، وأن يعرف الفرق بين طريقة معاملة شجرة السنط من شجرة الجوافة؛ فالأطفال ليسوا مجرد أطفال، إنهم كائناتٌ حية لا تتشابه أبدًا، كلٌّ منها هو برعم شخصية إن كانت ترث بعض الخواص عن الوالدَين والأجداد، فهي لها «نوعها» المُنفرد، وفي حاجة إلى أن يعي مُربيها أو أبوها أو أمها بنوعها المُنفرد هذا، ويفكر طويلًا في الطريقة المُثلى لمعاملته إذا أخطأ والثواب إذا أصاب، إذا اكتشف اعوجاجًا في شخصيته كيف، وبمنتهى الحرص والدقة،

يُواجهه ويسنده ليستقيم. إن عملية تربية شجرة مسألةٌ في حاجة إلى خبرة وإلى دراسة وتمرُّس شديدَين، فما بالك بمسئولية تربية امرأة أو رجل أذكى وأعمق وأغرب الكائنات الحية على الإطلاق؟

وبصراحة وأقولها وأمري إلى الله، لقد كففنا عن تربية أولادنا وبناتنا تمامًا منذ بدأنا ننفتَّح على عالم ما بعد الحرب، وتجتاح الشبابَ هناك موجاتٌ لا تلبث آثارها وأصداؤها أن تنتقل إلى هنا، ونقف نحن حيارى ننظر ببلهٍ شديد إلى ما يحدث؛ فهي مشاكل لم يُواجهها آباؤنا، ولا علَّمونا كيف نُواجهها. لا عادت طريقة «اخرس يا ولد يا قليل الأدب» والرن بالقلم تصح، ولا طريقة إطلاق السراح للولد أو البنت يصنع أو تصنع ما تشاء تصلح، وانقطع ذلك الاتصال، أو بالضبط ذلك الحد الأدنى من الاتصال الواجب بأن يقوم ويمتدَّ بين الأجيال؛ إذ هو «كابل» القيم البشرية الذي يمتدُّ لينقل التراث ويُضيف، ويجعل من البشر بشرًا أرقى كلما غوَّر في أرض الحاضر والمستقبل.

وهكذا فالإنسان يكاد يموت من الضحك وهو يتفرَّج على أين وصلنا؛ إذ أصبحت القيمة التربوية الوحيدة المتَّفَق عليها في مجتمعنا لنجاح التربية أو فشلها، لنجاح الشاب أو الفتاة أو فشلهما، هي موقفه في الثانوية العامة، وبالضبط مجموعه.

وأكتب هذه الكلمات ومصر من أقصاها إلى أقصاها مشغولة بالتتميم على هذه القيمة، فليفعل الولد أو البنت أي شيء ما دام سيأتي بمجموعٍ هائل في الثانوية العامة؛ إذ إن ذلك المجموع لن يُحدد رجولته وقيمه وأخلاقه ومُثله العليا فقط، ولكنه أيضًا سيرى المجتمع وعلى الفور إن كان فلان قد نجح في تربية ابنه أو أولاده أو فشل. أي وضع خطير صِرنا إليه؟ أن ينتهي المجتمع إلى القيمة الوحيدة الرفيعة القيمة فيه، أو التي تُحدد درجة صاحبها، ليس فقط من النبوغ، ولكن أيضًا من السلوك ومن الأخلاق، وهي مجموعه في الثانوية العامة، أو نجاحه أو فشله فيها.

إنه لمشهدٌ مُرعب.

فأولًا طريقة التعليم عندنا قديمة ومُستهلَكة، لا تمتحن في الطالب إلا قدرته على الحفظ؛ أي هو في مجمله اختبار للذاكرة، والذاكرة ما هي إلا خاصيةٌ واحدة من خواصِّ العقل الكثيرة جدًّا. وثانيًا نحن نسير على نُظمٍ امتحانية واختبارية إرهابية تركها العالم الحديث كله، وأصبحت فيه مدارس جديدة وتطويرٌ هائل، وتغيير التعليم من وسيلة لملء عقل الولد بأكبر كم من المعلومات والأرقام إلى نظامٍ يُعلم الإنسان، ويُنمي فيه القدرة على

الخلق والابتكار؛ أي القدرة على «استعمال» المعلومات الموجودة في الكتب، وفي أرشيف العقول الإلكترونية، والميكروأفلام. الإنسان المُتعلم، كما يجب أن يكون الإنسان المُتعلم، أصبح هو ذلك القادر على ابتكار الحلول للمشاكل. ونُظمُ التعليم في معظم أنحاء العالم تغيَّر هدفها من تخريج آلات حفظ صمَّاء، إلى تخريج مُبتكرين ومُخترعين، وباختصارٍ أناس يقومون بأشياء غير الوظائف التي يمكن أن يقوم بها أي إنسان آلي وأي ماكينة حاسبة.

تصوَّروا الكارثة أن يصبح هذا المقياس المُتعفن لنظام تعليم مُتعفن هو المِقياس «التربوي» الوحيد في حياتنا.

إذا اجتازه الولد أو البنت بنجاح، فهو الملك أو الملكة قد تُوِّجا ونالا على أداء هذا الواجب البسيط، أبسط الواجبات في حياةٍ حافلة مُقبِلة، نالا عليه كل ما تستطيع العائلة والمجتمع من حولهما منحه، وبأقصى ما يستطيعون من سخاء، وإذا فشل وفي أغلب الأحوال لا يكون السبب «فساده»، بقدر ما يكون مشاكل نفسية بينه وبين والدَيه أو بينه وبين المجتمع لم يستطع حلها. إذا فشل لأنه ثار — بلا وعيه — على كرابيج الأوامر بالمذاكرة التي تنهال عليه حتى من البقال والبواب، إذا فشل لأي سبب من الأسباب، فقد حدثت الكارثة الرهيبة، وارتكب «السقوط» الأعظم، ويسقط من غربال الحياة. طبعًا لا أحد يقول له هذا، بل الجميع يُحاولون مُواساته في جنازة نفسه، ولكنه بحاسَّته الإنسانية البسيطة يُدرك من خلال العيون والنظرات، وأحيانًا الهمس الذي لا يسمعه، يُدرِك أنه «خاب»، وأنه حثالةٌ بشرية، وأن لا فائدة.

والكارثة أن امتحان الثانوية العامة يُوقَّت والشابُّ يجتاز أعنف مراحل ثورته الثالثة، أعنف مراحل مراهقته.

أن تُواجه هذه الثورة البنَّاءة المفروض أن تخلق وتُجدد وتُشكل مصير إنسان هو الذي سيصنع مستقبل أمة، أن تُواجه بمؤامرةٍ كونية على هيئة ثانوية عامة هي في رأيي أبشع ما يُصنَع لتخريب نفوس بريئة، بدلًا من رعايتها كي تجتاز الأزمة إذا بها تُواجَه بمحاكمةٍ عسكرية فورية، وإما براءة رغم براءتها تُشوه حتمًا مقاييس وملامح داخلية، وإما حكم بالإعدام اجتماعي لا نقض فيه ولا إبرام.

وأنا لست تربويًّا، لا أعرف الحلول التربوية لهذا كله، ولكن ما أعرفه حقًّا هو أن مصر مليئة بعشرات من حملة الدكتوراهات في التربية، ومئات ممَّن يدخل هذا الموضوع

في صميم اختصاصهم، ومعنى هذا أنهم يرون هذه الصورة التي حاولت رسمها بسرعةٍ مُكبرة عشرات المرات، فكيف وهم العارفون يسكتون إلى الآن على هذه الجريمة؟ هذا الذي يُسبب ضياعًا تامًّا لشبابنا بمختلف طبقاته وفئاته، هذا الذي يُخرج لنا إذا أخرج أناسًا كانوا آدميين، ثم أحلناهم نحن إما بجهلنا وإما بعِلمنا وإما بطُرقنا إلى ما نراه الآن مُعربِدًا في شوارع مُدننا، فاغرًا فاه ليُخرج أقبح ما يُقال في مدرَّجات كرتنا، يعوي في ظلام سينماتنا، يُدمر نفسه، ولو الود وده لدمَّرنا معه ودمَّر كل شيء.

سيداتي سادتي.

الجلسة ما زالت مستمرة.

الناموس العام

السيدة التي أطلقت النار على شريكها في تجارة الخشب ربما أو في الزواج، أعجبتني.

وقبل أن يثور عليَّ القُراء لإعجابي بقاتلة، فإني أوضِّح حالًا أني أستقبح فعلتها تمامًا، وأعترف أن القتل هو أبشع الخطايا والذنوب، ولكن إعجابي هنا مسألة لا علاقة لها البتة بعملية القتل، إعجابي راجع إلى أني أخيرًا عثرت على مصري، أو بالأصح مصرية، تخرق الناموس العام، وتتصرَّف بوحي من صِدقها مع انفعالاتها ونفسها وما تُضمره داخلها من نوايا، شريرةً كانت أم طيبة؛ ذلك أننا لم نتعوَّد أبدًا أن نقول أو نتصرف بوحي من فرديتنا أو تفرُّدنا، وإنما عادتنا جرَت على أن نفعل ما «يجب» علينا أن نفعله، وأن نقول ما «يجب» علينا قوله، خاضعين في هذا خضوعًا شبه كامل لناموس المجتمع العام.

ونحن نكره أن يشذَّ علينا أحدٌ منا برأي أو بتصرف أو بعمل، مهما سلَّمنا بيننا وبين أنفُسنا أننا مختلفون تمامًا، وأن لكلٍّ منا كيانًا وشخصية ومثلًا، وأننا لا يمكن أبدًا أن نكون مثلنا مثل قطيع أغنام أو قافلة نمل، ومع هذا، ومع إدراكنا لهذا كله، فإننا نستنكر على أيٍّ منا أن يُزاول اختلافه هذا مزاولةً فعلية عملية، فليكُن اختلافه معنا في السر وبينه وبين نفسه فقط — وحتى هذا نستنكره أيضًا — أما حين تأتي المسألة لساحة القول العام أو الفعل العام، فلا بد للناموس الجماعي الهائل أن يُسيطر، وألا يرتفع صوتٌ واحد بكلمةٍ تخدش الإجماع وكأنه إجماعٌ مقدَّس، وكأنه إجماعٌ من صنعِ ملائكة، وكأنه منزَّل، في حين أن ذلك الإجماع ليس مقدَّسًا ولا منزَّلًا ولا شيئًا من هذا القبيل، إنه إجماع يصنعه في العادة الأعلى صوتًا والأكثر جلبة، والأشد قدرة على فرض الرأي والذات والتصرف.

ومن هذه الزاوية فقط، ها أنا ذا لا أستطيع أن أمنع نفسي من الإقدام على الإعجاب بهذه السيدة التي جرُؤتْ على خرق الناموس العام.

الناموس العام الذي يجعلنا نحن المصريين من أعقل شعوب الأرض قاطبة؛ ذلك العقل الذي حيَّرني أمره طويلًا وكثيرًا، خاصة حين كنت أسافر، وأحتكُّ بكثير من شعوب الدنيا، وأبدأ حتى دون أن أدري، أقارن بيننا وبينهم، أجد أن لكل شخصية من شخصيات الشعوب نوعًا من جنونها الخاص، أو تصرُّفاتها المجنونة الخاصة، أو غرابتها أو شذوذها، ثم أعود لمصر، وبعيونٍ جديدةٍ أحاول أن أعثر لشعبنا أو لشخصيته على قدرة غرابة، أو بادرة تفرُّد، أو جنون من أي نوع، دون جدوى.

وحين أقول إننا أعقل شعوب الأرض، لا أعني بالطبع أننا كذلك لأننا أكثرها حكمة أو علمًا أو تأدبًا؛ فالحقيقة بالضبط أعني أننا أكثرها تعقلًا.

والفرق بين العقل والتعقل، هو أن الفعل العاقل يأتي نتيجة لإعمال عقلك الخاص في المشكلة، ثم الخروج لك برأي أو استنتاج معيَّن خاص، ثم التصرف على أساسه، في حين أن التعقل ليس نتيجة إعمال لعقلك وفكرك الخاصَّين، وإنما نتيجة لمُراعاتك للعقل الاجتماعي العام للتفكير السائد، سواء كان خطأً أو صوابًا، وخوفك منه إلى درجة إيثارك التصرف بناءً على أساسه، وليس بناءً على رأيك أنت، وحكمك أنت، وتقديرك أنت.

وهذا الناموس السائد، أو العُرف السائد، أو الضمير العام، نحن لا نفترضه في مجتمعنا فقط، ولكننا حتى نفترض وجوده في العالم كله، وخناقاتنا الوطنية كلها منذ أيام مصطفى كامل وسعد زغلول، تفترض وجود هذا «القاضي» العالمي العادل، وتُحاول مخاطبته لإقناعه بـ «عدالة» قضيتنا. وكانت النتيجة أن أصواتنا كانت دائمًا تُبحُّ مُخاطِبة العالم مُستنهِضةً عزيمته وضميره، في حين أن خصمنا رابضٌ ساكن، يعتمد على تصرُّفه الشخصي وقوَّته الذاتية القابعة على أرض الوطن بمنطق قانون القوة والتفرد، وبمنطق أن لا شيء هناك في هذا المجتمع العالمي الذي بُنِي، ومنذ أساسه، على أن الحق مع القوة، وعلى أن العدالة المُطلَقة هي من صفات الله سبحانه، وأننا ما دُمنا بشرًا فهناك التخاصم وهناك التناحر، وأن لكلٍّ منا دعواه وحُجَجه ومنطقه، وأن الحق هو مع فارض حقه، وليس أبدًا نتيجة لعدل يُصدِره مجلس الأمن أو يصنعه كيسنجر.

وأعتقد أن حربنا المقدَّسة في ٦ أكتوبر، لا بد أن تُعلمنا هذا الدرس — ومعذرة للصديق الكبير نجيب محفوظ — فنحن بتلك الحرب فرضنا رأينا بالقوة القاهرة، وقوَّتنا وحدها هي التي انتصرت، على حين ظللنا مع حقنا سنواتٍ طويلةً نُناشد العالم أن يُناصره دون جدوى، وضمير أوروبا الغربية وأمريكا العظمى ظل نائمًا عنا وعن وُجودنا نفسه، إلى أن صوَّب له العرب سلاح البترول، ورأى من فوَّهته الموت البارد، فاستيقظ؛ لا

ليُطبق العدالة أو يُساعد على تطبيقها، وإنما ليخضع للقوة، مُتظاهرًا بأنها قد أصبحت الحق والحق وحده.

ومهما يكُن مصير هذه السيدة التي أطلقت النار على رجلٍ ظل يفرض وجوده بالقوة عليها حتى قتلته، فإنني أفهم تمامًا معنى ما قالته وهي تُسلم نفسها للبوليس: «الآن قد استرحت إلى الأبد.» وقالتها وهي تعرف أنها خرقت الناموس العام، واختلفت مع المجتمع اختلافًا جذريًّا، ولجأت إلى وسيلةٍ بربرية لخلاص نفسها.

ألا نعتقد بعد هذا أننا، حتى كأفراد، في حاجة إلى مراجعة مواقفنا المُتعقلة جدًّا التي تخشى الاختلاف والخروج على المألوف، وفي حاجةٍ أصبحت أمسَّ لإعمال العقل الخاص والدفاع عن الرأي الخاص، والكف عن الاختفاء وراء النفاق العام والناموس العام؟

إن قليلًا من الخروج عن المألوف هو الذي يدفع المجتمعات دائمًا لاستكشاف آراء أجد، وتصرُّفات ربما أكثر حكمة بكثير من التصرفات العامة والسائدة.

ولا أقول هذا دفاعًا عن الخروج بالقتل، وإنما أدعو للخروج عنه — كما فعلنا بالنسبة للناموس العالمي العام في ٦ أكتوبر — بالخروج بالقتال؛ فإذا كان القتل هو أحط الوسائل للدفاع عن الحق والرأي، فالقتال، سواء بالكلمة أو بالتصرف أو بالبندقية، هو أسماها وأرقاها وأكثرها إنسانية.

الخروج عن الموضوع

أحيانًا لكي «تدخل» في الموضوع، لا بد أن «تخرج» ولو قليلًا عن الموضوع، وما دام الموضوع دائمًا هو مشكلة وجودنا الخالد، كيف، وبأية طريقة، وماذا نفعل، فقد أخذت على عاتقي أن أُزاول هذه اللعبة المشكلة منذ زمنٍ طويل. كلما غرقت حتى لا أكاد أرى، أحسست أني أختنق، أن لا فائدة أن المطلوب أكبر بكثيرٍ مما أستطيع أو نستطيع. كلما لا أعود أرى القمر، أو ألاحظ وهَنَ عجوز يعبُر الطريق، أو تمرُّ ابتسامة الطفل الحافي أمام عيني دون أن ألحظها، دقَّ في رأسي جهاز الإنذار الخفي؛ لا بد من الخروج لعودة الدخول، أو ربما الدخول عن طريقٍ أصح.

والسياسة في شرقنا العربي، وحتى في غربه، عملٌ شاقٌّ و«رِزل»، ولا أعتقد أن أحدًا يُزاولها إلا مُرغَمًا؛ فنحن، حكامًا ومحكومين، مُراهقون تمامًا وجُدُد، واللعبة ليست نظيفة أبدًا، والضربات دائمًا تُوجَّه تحت الحزام. لم نتعلَّم إلى الآن كيف حتى نتناقش، أو ضرورة أن نختلف، أو حتمية أن يقول كلٌّ منا رأيه. صاحب الرأي دائمًا ما «يُؤخَذ» من رأيه، وكأن الرأي عورة أو قلة أدب، والأحكام دائمًا جاهزة، وبلا أي حيثيات، وأسهل شيء أن تشتم أو تُشتم، حتى إن صورة المُواطن الصالح هو المُواطن العُقم تمامًا من أي اتجاه أو وجهة نظر؛ الماشي «في حاله»، القائل دائمًا نعم، وحتى ليس «نعم» الخاصة، وإنما الـ «نعم» العامة السائدة.

ولكن لأن القتال كُتِب علينا كما كُتِب على الذين من قبلنا والذين سيأتون بعدنا، وكما أن الدفاع عن قيمة الإنسان غريزةٌ تُساوي تمامًا غريزة الدفاع عن وجوده المادي الحيوي، فلا بد أن تخوض المعركة حتى لو عرفت تمامًا أنك خاسرها، فما بالك وهناك أمل أن تكسبها؟ والأمل يأتي دائمًا من وضوح الرؤية وحِدَّتها؛ فإذا أحسست أن الزجاج قد عام من الأمطار الساقطة من الأرض، وأن «مساحات» الزجاج لم تعُد تكفي، فلا بد

أن تخرج بنفسك لكي ترى أحسن وأكثر، لكي تُجدد شباب وجهة نظرك، ربما لكي حتى تعُود تؤمن بما تفعله.

ولقد قامت الصحافة، أو بالأصح بعض الأقلام الصحفية، بدَورٍ كبير في إعداد الرأي العام لتسلُّم راية الدفاع عن الرأي. وإذا كانت المعركة الانتخابية قد جاءت — في رأيي — صحية تمامًا، ودليل قوة حقيقية، وكأنها امتحان الثانوية العامة لهذه الأقلام، فقد جاءت النتيجة لا بأس بها بالمرة، والمجموع يستحقُّ أن نبدأ به مرحلةً جامعية جديدة يقوم فيها مجلس الشعب الجديد، أو بالأصح كثير من أعضائه، بدور النواة لحركةٍ شعبية قوية تنقلنا خطواتٍ كثيرةً إلى الأمام. انتهزت هذه الفرصة لأرى الموضوع أكثر، و«أخرج» لـ «أدخل»، وقد انتهزت فرصة دعوة وزارة الثقافة الجزائرية لي لزيارة الجزائر الجديدة، وإلقاء محاضرة عن «مشاكل الثقافة العربية»، وقبِلتُ الدعوة، وكنت أعرف أني كالمُستجير من الرمضاء بالنار، وأنها زيارةٌ ستكون حافلة بالمناقشات الثقافية والسياسية، وأنها عمليةٌ مُرهِقة شاقَّة، ولكن «كُتِب عليكم القتال كما كُتِب على الذين من قبلكم»، وسافرت وحدث ما توقعته وأكثر منه (يا ربي لماذا علينا دائمًا أن نُقاتل ونتقاتل؟) وطلبت من مُرافقي الشاعر الجزائري الكبير الأخضر السائحي، أن يأخذني إلى أعمق أعماق الصحراء الكبرى في الجزائر، هناك عند «حاسي مسعود» و«توجرت» و«غرداية»، هناك حيث «الطوارق» الملثَّمون، و«جانيت» الأفردويتية. الصحراء الصحراء الصحراء، حيث لا أُنْس ولا بشر ولا مناقشات، روحي ظمأى إلى الخلاء الخلاء الخلاء، يا قاهرتي القاتلة بازدحامك، الخلاء المُطلَق المُطلَق.

ولكن …

ماذا نفعل؟!

لم أجد الصحراء خالية، أي من صحارينا خالية — إلا ربما صحراءنا المصرية الطيبة — قد أصبحت خالية، وجدت أخانا اللورد البترول قد سبقني إلى هناك، واللهيب الأحمر الوهَّاج من قلب الأرض يتصاعد مُضيئًا صحراءها الكبرى، وكأنه يُحيلها إلى نهارٍ جهنمي وهَّاج.

أوغلنا جنوبًا وجنوبًا وجنوبًا.

الله.

أخيرًا، الفضاء.

ولكن الأروع من الفراغ والفضاء والصحراء،

هو: حين تبدأ تحنُّ إلى البشر، وتبحث عنهم أنت.

وأخيرًا تجد رجلًا.

رجلًا على بُعدِ أكثر من ستة آلاف كيلومتر من مكة.

وتقول له: السلام عليكم.

فيقول لك: سلام ورحمة الله.

لم ترَه، ولم يرَك، ولا أي من أجداد أجدادكما رأى الآخر أو عرفه.

ولكن …

سلام عليكم.

سلام ورحمة الله.

أنت منه وهو منك.

ولا حائل.

ولكن ليس هذا أوان الحديث.

فأنا بالكاد هابط من الطائرة.

حين ذابت الدولة

هذه المدينة من قبلُ رأيتها، بالضبط من أربعة عشر عامًا مضت، ولقد رأيتها كما لم أرَ، ولا أعتقد أني سأرى، مدينة في حالة كحالتها، مدينة بلا دولة وبلا حكومة، فجأةً كما حدث في سحب المُرشدين عقب تأميم قناة السويس، انسحب كل «الكادر» العامل في الحكومة، حتى موظفو الباسبورتات، إلى درجة أن — لأول مرة في حياتي أيضًا — أدخل بلدًا ما دون أي إجراءات جمركية، أو أحد يُلقي على جواز سفري نظرة، أو حتى يختمه أني «دخلت».

سِرت أيامها وسِرنا فيها. مدينة بلا بوليس، بلا حتى بوليس مرور، بلا قانون تستطيع أن تصعد و«تمتلك» فعلًا أي شقة خالية تلقاها، أو تفتح أي عربة واقفة بلا سائق وتصبح لك. مدينة بالضبط حدث فيها، ليس فقط «الانهيار الدستوري» المشهور، ولكن الانهيار الكامل للدولة والأجهزة، إلى درجة أننا في أحيان كنا نطلب القاهرة في التليفون ونظل نتكلم ونُملي بالساعات دون مُقابل؛ إذ لا أحد هناك يُحاسبك أو يأخذ المُقابل.

وصحيحٌ أنه وضع في جوانب كثيرة منه مُمتع؛ فأن تحيا بلا دولة ولا قانون ولا حكومة ولا نظام، قد يكون فسحةً جميلة بالنسبة لمُواطن تعوَّد الخضوع الصارم للأوامر، ولكن لا يكون كذلك بالنسبة لك أنت إذا كنت غريبًا، تجوب شوارع مدينة أنت فيها كما قال الشاعر القديم:

ولكنَّ الفتى العربي فيها غريبُ الوجه واليد واللسانِ

ولكنها فعلًا، برغم كل شيء، كانت أيامًا مُمتعة، خاصة بالنسبة لنا نحن الكُتاب والصحفيين القادمين من بلاد العالم أجمع، نشهد ميلاد تلك الدولة العربية الجديدة التي حصلت على استقلالها بعد واحدة من أعنف الثورات التي قامت في العالم وأكثرها ضحايا، ومواجهة مباشرة مع واحد من أبشع أنواع الاستعمار في العالم؛ الاستعمار الفرنسي الاستيطاني.

أنا إذن أتحدَّث عن الجزائر التي أكتب لكم منها هذه الكلمات، ولكن الذكريات تتلاحق حتى لتكاد تُغطي على الحاضر، تخلَّى النظام الفرنسي فجأةً عن التزاماته قِبل الجزائر، ورحل الموظفون والفنيون مرةً واحدة تاركين المدينة والبلاد كلها تنعى من طالبوا باستقلالها، وشعبها الذي تمرَّد وثار، حتى ذوق «نقل السلطة بطريقةٍ معقولة» لم يحدث. والمُضحِك أنه بعد الميلاد العسر، لم تُولَد دولةٌ واحدة جديدة، وإنما وُلدت، في وقتٍ واحد، دولتان، وجاء الطفل توءمًا؛ أحدهما في مدينة الجزائر، والآخر في تلمسان في أقصى الغرب قريبًا من الحدود المراكشية.

وبدأنا نشهد فصلًا آخر من المأساة؛ أن توجد حكومتان في دولةٍ واحدة لا أحد يعرف لأيهما تكون الغلبة في النهاية، وكان علينا نحن الذين جئنا «إخوة من المشرق العربي» وعيونًا وتليفزيونات وصحفيين من أنحاء العالم، كان علينا أن نرقُب بذهولٍ هذه المعركة القائمة بين حكومتَين كلٌّ منهما تدَّعي الشرعية لنفسها، نُسجل ما يدور في مدينة الجزائر حيث حكومة بن خدة، ونجري إلى أقصى الغرب في تلمسان، على مسافة ألف كيلو أو تزيد، لنُسجل زحف حكومة بن بيلا القادمة من الغرب، وكان المشوار يُكلفنا الكثير، فيدفع كلٌّ منا أكثر من ستين جنيهًا إسترلينيًّا في المرة الواحدة مشاركة في عربة تاكسي، إلى درجة أننا وجدنا أنه من الأرخص لنا جميعًا أن نُساهم ونشتري عربة، لا بد أنها كانت تحديدًا لأحد الفرنسيين الذين فرُّوا مذعورين أمام هذا الانتصار «العربي» في «الأندلس الجديدة».

ويبدو أننا لم نكن وحدنا الذين نلهث أمام «الأخبار»، كان هناك قومٌ آخرون يلهثون وراء «المستقبل»، ويُحيرهم مثلنا على أي جواد يُراهنون، فكنَّا نرى وجوهًا بعينها في الجزائر تُعامل حكومة بن خدة على أنها هي التي ستنتصر وتحكم، ونذهب عبر الألف كيلومتر إلى حكومة تلمسان لنجد هذه الوجوه نفسها تُعامل الحكومة الأخرى وكأنها الشرعية، وفعلًا من يدري؟ ربما تكون هي التي في النهاية ستنتصر، ولكن إذا كانت المُغامرة أو الرهان الخاطئ سيُكلفنا نحن بعض النقود الزائدة، فإن المُراهنة الخاطئة قد تُكلف أصحاب هذه الوجوه أعناقهم، أو على الأقل حريتهم الزمن الطويل، وما أكثرَ من

خسروا هنا وربحوا هناك، وما أكثرَ من راهن على الجواد الخاطئ، وما أكثرَ من خسر حتى ولو قد راهن على الجواد الرابح.

المهم أنه في تلك الأثناء بدأت المطامح في الحكم تظهر، وفُوجِئنا ذات ليلة ونحن في فندق الأليتيه — نفس الفندق الذي أكتب لكم منه هذه الكلمات — بحكومةٍ ثالثة تنشأ. كانت الجزائر أيامها تقريبًا بلا جيش؛ إذ كان جيش التحرير الوطني لا تزال معظم قُواته على الحدود الشرقية، ولكن بما أن ولاية من الولايات الخمس في الجزائر لها جيش تحريرها الصغير الخاص، فقد فُوجِئنا ذات ليلة بانقضاض مجموعة من الضباط الشبان وقوات جيش الولاية الثالثة — القريبة من الجزائر العاصمة — تزحف وتحتلُّ المدينة. وبالطبع لم تكن كافية لاحتلال كل مدينة الجزائر، فاكتفت باحتلال أهم مكان في المدينة، وهو فندق الأليتيه الذي كانت تعقد فيه حكومة بن خدة مؤتمراتها الصحفية، والذي كانت «تُدير» منه دفة الأمور في الجزائر إن كانت هناك دفة للأمور في ذلك الوقت.

كان في الفندق أيامها أكثر من مائتَي صحفي أجنبي عربي، وأذكُر من بينهم على وجه التحديد صديقي الخبيث مستر «ويب»، مُراسل وكالة أسوشيتد برس في ذلك الوقت. كان بجسده المُمتلئ ولحيته الصغيرة المنمَّقة يُوحي لك بالثقة تمامًا، وكنا كثيرًا ما نتداول الآراء والتخمينات والتحليلات حول الموقف. وحين حدث هذا الهجوم التتري من قوات «الولاية الثالثة»، وقفت مع أصحاب مهنة البحث عن المتاعب خارج باب الفندق، نتساءل في حيرة عن معنى ما يجري في الداخل من احتلال، ولم نكُن نعرف حتى من هم هؤلاء الضباط، ولا إلى أي جناح ينتمون، فجأةً وجدناهم هكذا مجموعة تحمل المترليوزات والأسلحة الأوتوماتيكية، وتنقضُّ علينا وتُخرجنا من الفندق مذعورين.

وسوَس لي الخبيث المستر «ويب» أنني الوحيد الذي أستطيع أن أكشف سرَّ هذا الاحتلال الغامض، باعتباري الكاتب العربي الوحيد الذي كان موجودًا في ذلك الوقت. وفعلًا كان الأمر كذلك، وتلفتُّ أبحث عن الصديق حمدي فؤاد مُراسل الأهرام، أو فوميل لبيب مُراسل دار الهلال، ولكني لم أجدهما، ولم أستطع أن أعرف أين كانا في ذلك الوقت. المهم.

تقدَّمت ودخلت بهْوَ الفندق. كان هناك ضابطٌ شابٌّ لا أعرف رتبته جالسًا على الكنبة الرئيسية في البهو، ومدفعه الأوتوماتيكي فوق ركبته، وقلت: سلام عليكم. قلتُها باللغة العربية الفصحى، فإذا بوجهٍ يبشُّ لي ويُجيبني بلغةٍ عربية سليمة: سلام ورحمة الله وبركاته. نجحتُ في نصف مهمتي إذن، ودعاني للجلوس، فجلست وأنا أرمق الزملاء

الصحفيين من أنحاء العالم مُتجمعين عند الباب الخارجي للفندق، يتطلعون بشغفٍ شديد إلى ما أقوم به، وكأنني أصنع أمامهم معجزة. قال لي الضابط الشاب: أنت من القاهرة؟ قلتُ: نعم. قال: لقد عشتُ في القاهرة فترة، وأعرف حي الحسين، وسكنت في الدقي. قلتُ في سرِّي: الحمد لله. وأخذت وأخذنا نُعدد معًا أسماء الأحياء في القاهرة وذكرياته عنها. وقد بدَت سعادةٌ جميلة تزحف إلى ملامحه الشابة، وكأن القاهرة تحمل أسعد وأجمل الذكريات لهذا المُناضل في جيش التحرير.

وهنا عنَّ لي أن الأوان قد آن لأدخل في الموضوع، فسألته: هل ممكنٌ أن تقول لي من أنتم؟ ولماذا تحتلُّون الفندق؟ هل هذه حكومةٌ جديدة أم ماذا؟

ووجدته ينظر إليَّ بدهشةٍ شديدة، وبدأ وجهه يشحب، وبحدَّةٍ قليلة سألني: لماذا تسأل؟

قلت: لأن عملي أن أسأل.

قال: وهل أنت من هؤلاء؟ هل تريد أن تستدرجني؟

وأشار إلى الصحفيين الذين كانوا مُتلاصقين تمامًا يملئون الباب الواسع، ولا يريدون أن تفوتهم من المشهد بادرة.

قلتُ: طبعًا أنا منهم، وقد قلت لك هذا، وإلا فماذا تظن أني أفعل هنا؟

وهنا تلاحقت الأحداث بسرعةٍ تشلُّ العقل؛ إذ وجدته قد انتفض واقفًا فوق الكنبة فجأة، وقد احتضن مدفعه وصوَّبه إلى قلبي مباشرة، ولم يكُن هذا هو الذي أرعبني، المُرعِب الأكثر أني سمعتُ بأذني «تتك» الأمان يفكه بإصبعه؛ إذن الخطوة التالية أن يُطلِق النار.

غريبٌ تصرُّف الإنسان أمام لحظات الخطر. لا أعرف لماذا صوَّبت ركن عيني إلى حيث الباب و«الزملاء» المُتجمعون، فوجدتهم جميعًا قد أطلقوا سيقانهم للريح، والباب فارغ لا أحد عنده، وفوهة المدفع بينها وبين قلبي سنتيمتراتٌ قليلة، والطلقة قادمة لا محالة.

قلتُ له فجأة وبكل ما أملك من رعبٍ شجاع، أو بالأصح رعب قد جمَّدني حتى الخوف: اسمع، لا تُطلِق النار على أعزل مثلي، أنا كما تعرف من مصر، أنا لست عدوًّا ولا فرنسيًّا، وإذا قتلتني فحتمًا ستدفع حياتك ثمنًا لهذا العمل.

لم يكن ما يُرعبني هو فوهة المدفع، إنما كان الرعب هو الشحوب الشديد الذي كان يعتري وجهه وملاحه، وبحاسَّة الكاتب فأنا كنت أدرك أنه شحوب ما قبل القتل مباشرة، وفقط بدأت أتنفَّس حين بدأ شحوب وجهه يقِل، وقال لي: اخرج حالًا.

قلت: أما هذا فسأفعله.

واستدرت وبالكاد حملتني ساقاي إلى الباب، وأنا لا أكاد أُصدق، حتى حين خرجت، والليل، والشارع الخالي، والصحفيون الواقفون عند آخر الشارع تلمع وجوههم في الظلام المُضيء، ما إن رأَوَني حتى بدءوا يتقدَّمون خطواتٍ قليلةً جدًّا إلى الأمام، ثم توقَّفوا إلى أن وصلت، واندفع المستر ويب يفتح فمه، فرفعت يدي إلى وجهه وكأني سألطمه، وقلت له: قتلتني قاتلك الله. وانتهت الليلة.

ولكن قصة الجزائر لم تنتهِ، وأبدًا لن تنتهي.

والآن، ومن فندق الأليتيه، والصباح باكر، وعلى نفس الكنبة التي شهدت المعركة، تعمَّدت أن أجلس وأخطَّ هذه الكلمات، فصحيحٌ أنا في نفس المكان، ولكن في جزائر أخرى جديدة تمامًا، وُلدت وشبَّت وترعرعت وتتكلم الآن العربية بتطرُّفٍ جزائري حادٍّ كالعادة؛ فعملية التعريب قد مسحت تمامًا اللغة الفرنسية من كل مكان ومن أي مكان في الجزائر، ولا توجد سوى العربية، الجزائر الجديدة العربية، وتحية من مدينةٍ أصبح الفتى العربي فيها ليس غريب الوجه واليد واللسان، وإنما أصبح صاحبها.

غطاء فانوس النور

كثيرًا ما تُطمَس أصالة المصريين، تطمسها الأحداث المَهولة التي لم تتركنا، منذ ربع قرن أو أكثر، يومًا، تطمسها الأحداث اليومية الصغيرة التي تطنُّ طوال ساعات الليل والنهار كالذباب المُقلِق، تُعمي الآذان والإدراك والعيون. كثيرًا ما يتُوه الواحد منَّا في الشعب ويتُوه الشعب منه، ويُحسُّ بنفسه غريبًا وسط غرباء، لا يعرف ولا يعرفون عنه شيئًا، بل كثيرًا ما يبلغ السيل الزُّبى، ويضيق الإنسان بنفسه وبالمصريين وبمصر، وحظه العاثر الذي أحياه في هذا العصر، لماذا لم يوجد أيام كان تعداد الشعب عشرة ملايين؟ أيام كانت الأسعار تُدغدغ ولا تكوي بالنار، أيام لم يكن في مصر نفير ولا زعيق أو ضجيج. أنا شخصيًّا كنت أُفضل لو وُجدت في عصر رمسيس الثاني، فما دام جلالته قد عاش وحكم إلى سن السابعة والتسعين، فمعنى هذا أنه كان خالي البال والمزاج، ولا يمكن لملكٍ أن يكون خالي البال والمزاج إلا إذا كان شعبه هو الآخر خالي البال والمزاج.

كثيرًا ما تتُوه منا حقيقة شعبنا وكثير من صفاته التي جعلته على هذه الدرجة من الرُّقي وطول البال والإقبال على الحياة، برغم أن كل ما فيها يدفعك دفعًا لمُغادرتها.

إلى أن يحدث مرةً حادثٌ صغير جدًّا، وكأنه القشة التي تكشف عن ظهر البعير، مثل ذلك الحادث الذي جرى لسيارتي على يد مبتدئ في القيادة، وأستاذ في خرق القانون وارتكاب المخالفات، وجعله يخبط «رفرفه» في رفرف سيارتي، ويخلع غطاء فانوس النور.

وفي العادة، وحين كانت العربة جديدة، كنت ما يكاد يحدث هذا حتى أُسارع، وفي الحال، بتركيب غطاء فانوس جديد، ليس للوجاهة، ولكن إدراكًا مني لأهمية صيانة السيارة، بحيث إن إهمالًا لقطعة منها تفسد ممكنٌ أن يتراكم الفساد بحيث تجد سيارتك بعد بضعة أسابيع «كهنة».

أما وقد قدمت السيارة وناهزت الاثنَي عشر عامًا، وأنا الآخر قد كبِرتُ اثنَي عشر عامًا، وفقدتْ هي جِدتها وفقدتُ حماسي، فلم أجد في نفسي رغبةً عاجلة في إصلاح غطاء الفانوس المذكور.

وهكذا وجدت نفسي أمرُّ بالتجربة الغريبة.

الغطاء لم يُنتزع تمامًا من مكانه، وإن بقي مُعلقًا بمسمار، على حين إطاره قد تدلَّى أمام الزجاج الأمامي.

وبدأت المسألة بالعربة التي توقَّفت بجواري في الإشارة، وأشار سائقها الذي كان واضحًا أنه مالكها إلى ناحية الفانوس، ولم أفهمه، ففتح زجاجه وفتحتُ تأدبًا زجاجي، وقال: غطا الفانوس ح يقع. وتنبَّهت وهززت رأسي شاكرًا مُقدرًا، ومضى بعربته، ومضيت، وفي أول ملف، أشار لي سائق عربة نقل هائلة الضخامة، أشار لي من «عليائه» على الفانوس، وفهمت، وهززت رأسي شاكرًا، فعاد يُشير ويُلح، بل أوقف من دورانه، فاضطررت لإيقاف دوراني، وشرح لي بيدَيه، وصوته الذي لم يصلني أبدًا من ضجة موتوره، ما يريد، واضطررت أن أتبادل معه التمثيل الصامت، وأشرح له أني أعرف المشكلة، وأن الغطاء لم يعُد يصلح لإعادة التثبيت، ولا بد من تغييره، وشكرني هو هذه المرة، ومضى، ومضيت بعد أن أفرجت عربته الطويلة عن عربتي. وطوال الطريق من بيتي إلى الأهرام كنت ما أكاد ألمح السائق الذي يُجاورني أو الذي سبقني يُشير حتى أُسرع وأُفهمه أني عارف وفاهم، فإذا ألحَّ أُفهمه بالإشارة أيضًا أن الغطاء حالة ميئوس منها. وفكَّرت بعد اليوم الأول أن أذهب لصديقي الدكتور الذي ورث محل قطع غيار السيارات عن الرجل الطيب المرحوم والده، فترك الطب وتفرَّغ للمحل، فكَّرت أن أذهب، ولكني كنت مُتعَبًا، فقلت: إلى اليوم التالي.

واليوم التالي كانت مشغولياتي أكثر، ومشاويري معظمها في وسط البلد، حيث المرور بطيءٌ بطيء، وحيث لا أقلَّ من عشرين مرة لفت نظري لغطاء الفانوس المخلوع، ومائة مرة هززت رأسي أني أعرف وأن لا فائدة منه، وكل مرة والابتسامة الحلوة تُطل من وجه السائق أو الراكب وهو يُحاول لفت نظري، أتساءل:

أليس هؤلاء هم السائقين الذين كانوا يغيظونني تمامًا بمُخالفاتهم لكل قواعد الذوق والمرور؟ أليس بعض هؤلاء هم من كنت ألعنهم سرًّا وأحيانًا علنًا؟ ما لهم هكذا قد تحوَّلوا بقدرة قادر، وأصبحوا على مثل هذا الظرف والحرص على لفت نظري إلى شيء لا أهمية بالمرة لو سقط الغطاء أو حتى تدشدش الفانوس.

وأشياء غريبة جدًّا حدثت لي وأنا مُسرع فوق كوبري أكتوبر؛ تُسرع العربة التي بجواري بمغامرة حتى تسبقني؛ ليتمكَّن صاحبها أو سائقها من لفت نظري. عربات السوزوكي النقل الصغيرة التي تجعل عيني طوال قيادتي وسط رأسي من كثرة مروقها بين العربات، وتعرُّضها وتعريض غيرها للحوادث، مُستغلةً صِغر حجمها ورخص ثمنها لتنتشر كفئران الطريق، مئات من فئران الطريق لا تعرف إن كانت ستعبُرك من يمينك أو يسارك، أو ستدخل وتصبح على المقعد الذي بجوارك، سائقوها كانوا أكثر الجميع إيجابية وشهامة؛ فقد استغلَّ كثيرون منهم صِغر حجم العربات، ويمرقون مُعرِّضين سيارتي نفسها لحادثة؛ فقط من أجل أن يسبقوني، ويلتفت سائقها ناحيتي كليةً ليُنبهني لغطاء الفانوس المعلَّق، غير مُنتبه أنه وهو يفعل هذا قد كف عن النظر أمامه تمامًا وهو المُسرع، وعرَّض نفسه لتصادُم.

مرةً سبقتني عربة وتوقَّفت فجأة أمامي، ونزل سائقها وأشار إلى الفانوس بعدما توقَّفت فجأة جبرًا أنا الآخر، وحين حاولت إفهامه استحالة إصلاحه، لم يقتنع إلا بعد أن حاول أكثر من مرة تثبيته، واستعمال جزء من علبة سجائره كتخشينة دون فائدة. حتى السيدات، واحدة من شدة حرصها جعلت السيدة الراكبة بجوارها هي التي تلفت نظري، والأخرى همَّت بلفت نظري، وحين لمحتني غلبها الارتباك، وصرفت النظر عن المحاولة. شرطي المرور، صِبيان عربات النقل. ركاب الأتوبيسات المُتشعبطون المُتزاحمون عند الباب، يتركون الوضع الرهيب الذي هم فيه، وينزع أحدهم يده القابضة على حديد العربة مُغامرًا؛ ليلفت نظري.

بربكم.

أي بلد من بلاد العالم يحدث فيه هذا؟ واختر ما شئت من أرقى وأنبل شعوب الأرض، وقارِنْ ما فعله كل هؤلاء بما كان يمكن أن يحدُث لو كنت في ألمانيا أو روسيا أو أمريكا أو اليابان أو أي مكان.

في مبدأ الأمر كنت أُحرَج وأضيق بتلك الشهامة الزائدة عن حدها، ولكن بدأت أنفض عن نفسى عصبية السائق، وأتأمَّل الأمر في هدوء، وأبدأ أرى ما يحدث على ضوءٍ آخر تمامًا. إن هذه الأيدي المُلوِّحة، والعيون التي ألمح فيها الرغبة في لفت نظري إلى ضررٍ ممكنٍ أن يلحق بي، تجعلني لأول مرة ومنذ زمنٍ بعيد، منذ لم يكن هناك هذا الازدحام الهائل، والكثرة الضاغطة على الأعصاب، تجعلني أُحسُّ أن هؤلاء الناس يفعلون هذا بإحساس أننا عائلةٌ واحدة كبيرة، إحدى وظائفها أن تمنع الأذى عن أي فرد من أفرادها.

رحت أتلقَّى الأيدي المُلوِّحة والأصوات اللافتة لنظري على أنها مناديل حبايب بيض تُلوِّح لي بالتحية، وتُشعرني أني بين أهلي، وتُشعرهم أني واحد منهم.

لفت نظري كل مرة، مُستغرق في اللحظة، ولدى كل لحظة، أُحسُّ أن تيارًا من الأخوَّة المصرية، يعبُر، كالفرحة المُكهربة، قلبي.

أبدًا، لا يمكن أن يفعل هذا أي شعب من شعوب الأرض، وقد جُبتها كلها أو كِدت.

فقط هذا الشعب الجميل الرائع، المدفونة إنسانيته تحت تلال المشاكل الكبيرة والصغيرة، الدائخ بانشغال البال وتراكم الهموم، هو وحده القادر على هذا العطاء.

عطاء استمتعتُ به تمامًا حتى فقدت الرغبة في تصليح الفانوس؛ فكأنه قد أصبح يدي الممدودة بالسلام، وكأن كل لفت نظر من مُواطن يده تُطبق على يدي بشوق وحرارة وتُسلم علي.

واللهِ أوحشنا حبُّك كثيرًا يا شعب. عبرت الفكرة بخاطري ودمعت عيوني. أُحبكم أيها الناس، أنَّى لي بعمرٍ آخر أسفحه رخيصًا من أجلكم؟ أنَّى لي؟ حتى أنت يا أمين الشرطة الذي جئت تُحرر لي مخالفة انتظار، لفت نظري لا عن مزاولة لوظيفة، وإنما خوف من «أن يقع ويضيع خسارة».

شكرًا لك.

وآسفًا انتهزت فرصة وقوفي وهبوطي من السيارة ومُجاورتي للغطاء، ومددت يدي أنتزعه من مكانه وأقذفه بجوار الحائط؛ حتى أوفِّر عليهم مشقة إتعاب أنفسهم ومصافحتي يدًا بفانوس.

ولكن ما جاش في صدري من عواطف كان فعلًا وكأنما أُزيحَ الغطاء عن فانوسٍ ضوئيٍّ قويٍّ أراني من أكون، ومن يكونون، ومن جميعًا نكون؛ أرقى شعب على سطح الأرض.

«مافيا الأرض» ومجلس الشعب

ولكن، ولكي نصبح شعبًا جديرةً حياتُه بما هو عليه من رُقيٍّ صنعته آلاف السنين وملايين الشدائد والهزائم والانتصارات، فأمامنا مهامٌّ كثيرة لكي يحدث هذا.

ويبدو أنه كان خطأً مني.

فبينما المدينة، وداخلها الصحافة بالطبع ووسائل الإعلام الأخرى، مشغولةٌ بحادث سقوط عمارة مصر الجديدة، والاتهامات تنطلق كالشهب لها دويٌّ وحدة الرصاص المُتطاير هنا وهناك، بينما هذا حادثٌ كتبتُ عن شيءٍ خطير جدًّا يتهدَّد حياتنا الزراعية؛ ذلك الجندي المجهول الذي يُنتج، القطاع الوحيد المُنتِج في مصر، وإنتاجه ذو نفع؛ فهذا الذي يُغذي المدينة يُغذيها وهو جائع، وعائد الفلاح في تناقُصٍ مستمر إلى درجة أنه بدأ يُهاجر؛ لأن المدينة تشتري منه المحصول بأبخس سعر؛ فكأنه هو الدولة الحقيقية التي تدعم طعام المدينة؛ فالحكومة تأخذ منه طن الأرز بخمسة وثمانين جنيهًا، في حين هي تشتريه من الخارج بحوالَي سبعمائة جنيه، وبما أن كليهما يذهب إلى مساكن المدينة بسعرٍ واحد، فكأن الفلاح يدعم كل طن أرز بما قيمته ستمائة جنيه، بدمه المسفوح، وبرغم هذا لا نتركه على أرضه وحاله. أزمة الإسكان في المدينة رفعت سعر الطوب الأحمر إلى أرقامٍ خرافية. وهكذا تكوَّنت عصابات من مافيا الأرض، تجرفها وتشتري الطمي بثمنٍ أغلى بكثير من سعر الأرض نفسها لو باعها صاحبها، وتحرق طميها وتتركها غير صالحة للزراعة فيما أسميتُه حين كتبت: الذين يأكلون أُمَّهم. وبرغم أن الكلام عن مشاكل المدينة لا يزال هو شغلنا الشاغل، إلا أن ما أشرت إليه مسألة لا تقلُّ كما ذكرت عن الاحتلال الأجنبي والغزو الاستيطاني لأرضنا.

ولقد كتب الصديق الأستاذ صلاح منتصر تعليقًا في بابه اليومي أيامها قائلًا: إن تجريف الأرض مسألة لا يمكن السكوت عليها، ولكنها لا يمكن منعها طالما أن الناس تريد

أن تسكن، وطالما الحاجة إلى بيوتٍ هي الشغل الشاغل للجماهير في الريف والمدن. وقال إن الحل ليس بالإجراءات البوليسية التي تُتَّخذ ضد المُجرِّفين، ولكن في التشجيع الفوري وعلى نطاقٍ واسع لمصانع طوب الطفلة والطوب الرملي والأسمنتي. وأنا معه تمامًا في هذا، بل ما كتبت الموضوع إلا من أجل أن نصحو ونتحرك لإيقاف جريمة تجريف الأرض من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى لرصد مبالغ سخية لإقامة المصانع البديلة من ناحيةٍ أخرى.

ولقد سعدتُ تمامًا، وأنا أقرأ بعدها في الأهرام، أن اللجنة الزراعية بمجلس الشعب سوف تُناقش في اجتماعها التالي فورًا رفع العقوبة على جريمة التجريف إلى ٥٠ ألف جنيه للفدان والحبس.

وأيضًا استمعت إلى الحديث الذي أدارته السيدة فريال صالح مع الدكتور يوسف والي حول الموضوع نفسه.

ثم خمد كل شيء مرةً واحدة خمودًا مُريبًا، ولأنه مُريب فها أنا ذا أكتب مرةً أخرى، ولن أتوقَّف أو يتوقَّف غيري عن إثارة الموضوع، لن أتوقَّف لأني لا أريد أن أُصدق أن القانون الجديد الذي يهدف إلى رفع العقوبة على التجريف بطريقةٍ فعالة، من المشكوك أن يمرَّ من مجلس الشعب أو من اللجنة الزراعية. وأنا لا أريد الخوض في أسباب تلكُّؤ القانون أو مشروع القانون؛ إذ هي أسباب لا تمتُّ إلى أزمة المرور في مجلس الشعب، فقد استطاع قانون المحاماة أن يمرق بأسرع من البرق. لا أريد الآن على الأقل أن أتحدَّث عن أسباب تلكُّؤ القانون أو غيره؛ فالأسباب كلها يعرفها الدكتور يوسف والي وزير الزراعة، والمسئول الأول عن المحافظة على طمينا وأرضنا وخصوبتها، يعرفها سيادته ويعرفها الكثيرون.

ولكن هذا الموضوع قوميٌّ خطير، وقد قلتُ في المرة الماضية إنه لا يقلُّ خطورة عن احتلال أرضنا بقواتٍ أجنبية؛ إذ هو عملية استئصال أبدية لقدرة أرضنا الزراعية، موضوعٌ عاجل خطير، التلكؤ في مقاومته جريمة، وبالذات لو كان المُتلكئون ممَّن يقومون فعلًا بتجريف الأرض الزراعية، والإثراء من حرق طمينا المقدَّس.

فهل تكفي هذه الكلمة لكي تتحرَّك اللجنة ويتحرك المجلس، وترتفع الأيدي التي تُحاول خنق القانون الذي سيُنقذ روحنا ومصدر حياتنا الأرض؟

أم أن من في قلوبهم مرض، على رأي رئيس مجلس الشعب الدكتور صوفي أبو طالب، ومَن مِن مصلحتهم قتل القانون في حاجة إلى أبواقٍ أعلى؟!

دعونا نبكِ

يا أبانا الذي في الأرض،
يا صدرنا الكبير الحنون الذي كنا في ظله نكتب ونُخطئ وننقد ونُنتِج ونصرخ ونتدلَّل ونُحارب ونثور،
يا أكبر من حملت به مصر وأنجبه العرب،
يا من فاجأتنا جميعًا بثورتك،
أكان لا بد أيضًا أن تُفاجئنا بموتك؟!

الحُفاة والعُراة خرجوا ساعة النبأ يشقُّون ثيابًا لا يمتلكون غيرها، ويلطمون خدودًا ضامرة، أولئك الذين لم تشملهم الثورة بعد وكان لهم الأمل، فكنت الأمل، فزعوا في منتصف الليل وقد غاب الأمل، وقد مات الأمل، وأصبحت مصر، وأصبحت الدنيا لأول مرة، بلا عبد الناصر. ونحن لم نتعوَّد أبدًا أن نتنفَّس هواءً لا يتنفَّسه هو، ولا أن ننام إلا ونحن نُحسُّ أنه هناك في كوبري القبة، ولا أن نستقبل الصباح إلا على صورة له وابتسامة، وجهدٌ مُخلِص آخر في سبيلنا وفي سبيل العرب. المصيبة أننا لا نبكي فيك البطل لا ولا المُقاتل الشجاع ولا مُفجر الثورة، إن كارثتنا أبشع لأننا نبكي فيك قبل هذا كله الحبيب؛ حبيبنا جميعًا الذي كان لكلٍّ منا فيه قطعة، وكان له في كلٍّ منا قطعة، وحين مات مات هذا كله في قلبي قطعة، أعز قطعة، توقَّفت مع قلبك أيها الحبيب.

الموت.
يا أيها الموت،
يا من هزمتنا بما لم يستطع الأعداء،

أرادوا النَّيل منك لينالوا منا،
فوقفنا جميعًا،
كالحائط المرصوص نحميك.

ونحن أيضًا لا نزال واقفين حولك كالحائط المرصوص نحميك.

ولكن ماذا نفعل إزاء الموت، إزاء عدُو لا نراه، ولا نستطيع قهره بالشجاعة، ولا نملك لمنعه سلاحًا، كيف نمنعه عنك وقد انقضَّ عليك كالغادر يختطفك ويستلب روحك، ونحن حولك عاجزون حيارى مذهولون؟

ماذا أقول؟

أأقول إننا سنمضي على دربك الثائر أقوياء مُعتزين أنك أول من سار فينا، ونحن أول من تبعك؟

أأقول إذا كان عبد الناصر الجسد قد مات، فإن عبد الناصر الروح والشعب، كما قال الفقراء الحفاة، لا يموت؟

وما فائدة أن أقول هذا الكلام كله؟

أأقول العزاء؟

أأقوله لأخفِّف من الكارثة؟

ولكنني لا أريد أن أخفِّف من الكارثة.

إني أريد أن نعيشها بكل ذرة فينا.

أريد أن يُخلى بيننا جميعًا وبين الحزن على عبد الناصر، فنظل نحزن عليه كما نشاء، نبكيه كما نشاء، ونُعذب أنفسنا بالفجيعة فيه كما نشاء؛ فلقد وقع أخيرًا الحادث الجلل.

ونعى الناعي
حبيبَنا عبد الناصر.

حزننا البليغ

حزينة، هكذا ما كانت مصر، وحزينة هكذا، أبدًا لن تكون. والحزن ليس غريبًا على مصر، إنه تاريخها وأصواتها، ومنه صنعت الرجال!

منذ أن وطئ الإسكندر حضارتنا، وتوالت بعده الأقدام، والحزن هو رايتنا السوداء المُنكسة أبدًا.

السواد هو رداء نسائنا من قديم الزمان.

والرجال في جلاليبهم البيض والسود مأتمهم دائم الانعقاد، ولكن حزننا اليوم مُطلَقًا ليس كما فات من أحزان، ولا ككل الأحزان!

هو ليس حزنًا على احتلالٍ طال، أو هزيمةٍ حاقت، أو ندرة الرجال.

ليس عتابًا للزمان!
إنه هذه المرة لغة.
لغةٌ جديدة ينحتها الشعب.
لم أرَ ولا أحد رأى لغة تُضاهيها،
أو تحمل بلا حروفٍ أو كلماتٍ
كلَّ ما يمكن وما لا يمكن للحروف والكلمات أن تحتويه.

* * *

بحزننا أيها الناس نقول الكثير.
بحزننا لأول مرة ينطق شعبنا الأخرس.
بحزننا نُفصح عن أشياء في قلوبنا ظلَّت تنضج عبر آلاف السنين، وتتراكم عبر آلاف الحوادث، وتختنق بين أصابع الظالمين.
موت عبد الناصر أنطقنا.
وبحزننا عليه ننفجر ونقول.
وما أكثرَ ما سوف نفعل ونقول!

* * *

يا شعبي الذي أسكنه الحزن الطويل،
لينطق حين فاجأه الحزن الأكبر،
إني لأول مرة أسمعك وأفهمك،
لأول مرة أرى قلبك المكنون الأبيض،
لأول مرة تتفتَّح لي أعماقك السحيقة فأراها وأراك،
ومن أعماقك السابعة،
من قدس أقداسك،
الذي فتحته لأول مرة،
لترقد فيه جمالك وناصرك،

أسمع الكلمات التي ضممت عليها نفسك آلاف السنين،
ولم تُغادر شفتَيك إلا الآن فقط، وفقط الآن.

* * *

بلغة حزنك قُل إذن وانطق.
خاطِبْ عالمًا جلَّك وتجاهلك.
خبِّره عن عبد الناصر الذي احتار في فهمه.
خبِّره عن الرجل الذي ولدته ليقودك،
وعلمته ليعلمك، وحنكته ليكون إرادتك.
خبِّره عن سرِّه،
الذي هو من سرُّك.
خبِّره أنك به تبدأ،
وليس بحياته تنتهي.
خبِّره أنها لم تكُن خمسين عامًا، عمره إنما هو ألف وألف وخمسون،
بل منذ أن كان للبشرية تاريخ.

* * *

يا شعبي الذي تحوَّل إلى بحرٍ هائج مائج،
ما أروعَ حزنَك العاصف!
ما أنصعَ أعماقَك!
يا للآلئها تخطف البصر!
يا لصوتك الجليل المعتَّق يُدوي!
والعالم يسمع.
ألا فليسمع العالم.
يا صديقُ اسمع.
يا عدوَّنا أصغِ وجيدًا.
لقد انتهى عمر عبد الناصر ليبدأ تاريخه.
وانتهى ناصر الشعب ليبدأ شعب عبد الناصر.
وبدموعنا المُنهمرة نُسطر أول الكلمات.
وبتعبيرنا المليء بالشجن نحفظ الرسالة.

نصون الأمانة.
أمانة أودعناها عبد الناصر عبئًا،
وأعادها إلينا طريقًا وثورة،
وجعلناه إرادتنا،
وبفرحتنا به سكتنا،
وبحزننا عليه نعود ننطق.
ألا ما أبلغ ما تقوله أيها الشعب بحزنك.
فلقد عِشنا طويلًا نسمع العالم ساكتين،
وآن الأوان أن يسمعنا العالم،
ويُصغي جيدًا لما نُصدِره من نشيج ونزيف.

غنِّ يا عبد الحليم

قد مات شهيدًا يا ولدي من مات فداءً للمحبوب. اصدح يا عبد الحليم وغنِّ؛ فالمتعة قد بدأت تتسرَّب إلى نفوسنا الجافَّة؛ نفوس تيبَّست فلا أحد يرويها والحر اللافح يشويها، والدنيا ركام من الأهوال والمشاكل. غنِّ يا عبد الحليم؛ فلعل وعسى؛ لعلها ساعة تستريح فيها، يبدأ الأخضر يطغى على الأصفر، ربما نبَت برعم. غنِّ يا عبد الحليم؛ فموسيقاك جميلة، والموجي رقيق وشاعر الموسيقى الشعبية، وأورج مجدي الحسيني وكأنه النشوة. غنِّ أيها الناحل الأسمر في بدلتك البيضاء الجميلة، زنبقة من قلب طيننا البُني، أعرف كم تُعاني وتُقاسي، وكم قاسيت لتشرخ التربة، وفي عنادٍ تشقُّ الطريق وتصعد وتتبوَّأ مكان النغمة جميلة العذاب في قلوب الملاين والملايين. غنِّ يا بلدياتي يا ابن القنايات الذي استولى على القاهرة بلا جيش أو انقلاب، وحكم العواصم العربية بلا حسب أو نسب أو مخابرات، بأغنية الحب، يقولها لقلوب وألسنة برغم كثرة «كلامها» عن الحب، و«استعمالها» للحب، لا تحب، ويتسرَّب صوتك إليها هامسًا، ودودًا لا تجفل منه ولا تنكمش؛ إذ هو صوت يُحرض على الحب، وحتى لو حرَّض على اللوعة والأسى، فهو ذلك الأسى الجميل الذي يُمهد لتقبل الحب وزرع الحب، وحب الحب.

غنِّ يا عبد الحليم. برغم كل شيء غنِّ. واقرأ لنا يا نزار العظيم فنجاننا المقلوب، ليس بيد قارئة، وإنما بيد زمن غادر ومؤامرات وانقلابات، ودماء من كثرة سيلها وشدتها قلبته، وقلبتنا معه؛ فهو مقلوب، ونحن مقلوبون معه نقرؤه، فنقرؤه أيضًا بالمقلوب.

غنِّ يا عبد الحليم؛ فهي دقائق متعة، فعلًا أُحس ويُحس معي الآخرون بالمتعة، ليتها كانت متعة التحذير، ولكنها للأسف، أو لحسن الحظ، متعةٌ مفتوحة الأعين، مفتوحة الذاكرة، مفتوحة الوعي. أعرف أن دماءً غزيرة تسيل في بيروت. أعرف أن الإسرائيليين نجحوا في اختطاف الطائرة المخطوفة، وقتلوا الأوغنديين والمُختطَفين. أعرف أن ستمائة

قُتلوا في يومٍ واحد في السودان. أعرف أن الدماء تسيل من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب في وطننا العربي، ولكن، غنِّ يا عبد الحليم، غنِّ؛ فلرُبعِ قرن من الزمان أيها الناس ونحن بلا يوم راحة، نحيا في جهنم الحرب وجهنم الثورة وجهنم الانقلاب، وجهنم الحكم العرفي، وجهنم البيان رقم واحد ورقم مليون، نجوع ونموت، نمرض ونموت، نثور ونموت، ننتكس ونموت، ننتصر ونموت، نموت ونموت. غنِّ يا عبد الحليم، واقرأ لنا الفنجان يا نزار، قد مات شهيدًا يا ولدي من مات فداءً للمحبوب. ليتنا هذه الأنواع من الشهداء. إنما نحن في معظم الأحيان شهداء الرعونة، وشهداء أيدينا نحن وسيوفنا، شهداء حكمنا الوطني وحكوماتنا المختلفة أو المتفقة، شهداء آلاف وملايين النوازع الصغيرة التي يحفل بها إنساننا وعالمنا العربي، شهداء الأعداء الأذكياء الذين يلعبون بنا على الدوام ولم نلعب بهم إلا مرة، شهداء عقول من فرط رجعيتها تحجَّرت، وأقوال من فرط تجفيفها من معانيها أضحت أقفاصًا من حديد وقيودًا، شهداء عصر «الاستقلال»، نحن في كل كفاحنا ضد الاستعمار الأجنبي بقديمه وحديثه لم نخسر جزءًا من خسارات كفاحنا ضد أنفسنا، وكله — ويا للغرابة — بِاسم الشعب، وكله بِاسم الثورة، وكله تحت أروع وأضخم وأمجد الشعارات.

غنِّ يا عبد الحليم؛ فلم يبقَ لنا إلا أن نسمعك، مقدورك يا ولدي أن تبقى مسجونًا بين الماء وبين النار، مقدورنا أن نبقى مسجونين مخنوقين بين الدم القريب الذي تحوَّل إلى ماء، وبين نار العدو التي تحوَّلت إلى جحيم. وبرغم جميع حرائقه وبرغم جميع سوابقه وبرغم الريح، وبرغم الجو الماطر والإعصار، تقول يا نزار الحب سيبقى يا ولدي؟! أين سيبقى يا عزيزي نزار؟! في أي مكان من أرضنا يبقى، في أي كوخ، وكل كوخ ساكن فيه الحزن والحقد والدم ليل نهار؟ صدقت فقط حين قلت: مقدورك أن تمضي أبدًا في بحر «الحب» بغير قلوع، وتكون حياتك طول العمر كتاب دموع. أو تكون الراء قد سقطت سهوًا منك، وتكون تقصد بحر «الحرب»، وأي حرب؟ حرب لا معنًى لها بالمرة.

أنا أفهم أن نُحارب إسرائيل، أفهم أن نُحارب الاستعمار. أما ما يحدث الآن فأنا لا أفهمه، إلا إذا كان الشعار الأمريكي المعروف «دع الآسيويين يُحاربون الآسيويين» قد طُبِّق، وبنجاحٍ هذه المرة، في عالمنا العربي. بنجاحٍ ساحق ماحق. اذبح واقتل، بالهوية وعلى الهوية. لنعُد القهقرى إلى الحروب الصليبية، كل ما في الأمر أن الغزاة هذه المرة قادمون من الداخل، وليس فيهم «قلب أسد» واحد، إنما هي قلوب نعام وذئاب وكلاب. غنِّ يا عبد الحليم الحب سيبقى يا ولدي أحلى الأقدار. كده يا نزار؟ ما لقدرنا إذن انعوج

وانحرف، وأصبح القتل عندنا أحلى الأقدار، وحبيبة قلبنا يا ولدي ليس لها عنوان، فهي في كل مكان، وشاعرنا الكبير هو الآخر بلا عنوان، فأنا أريد الكتابة لنزار، فأين نزار؟ وتحت سارية أي شعار يقف؟ ربما ليموت شهيد شعار. من مات فداءً للمحبوب استراح، وربما أيضًا أراح، أراح المحبوب بالذات؛ فالناس لا تحب لتستشهد أو لتموت، الناس تحب لتفرح وتستمتع وتسعد، الناس تحب لتنطلق وتمرح، الناس تحب فعلًا لا قولًا، الناس لا تحب لتبقى مسجونة بين الماء وبين النار، الناس كل الناس، ما عدانا؛ فالحب حدانا حزنٌ ساكن فينا ليل نهار، ودموع غزار ومرار، ونعيق يسفح مدرار.

غنِّ يا عبد الحليم، أمتِعنا قليلًا وسط دوي الرصاص الأعمى، وسط حمام الدم يتجلَّط على أعيُننا وأيدينا ويحنينا ويخضبنا بالسواد، ولا نملك سوى المداد، وأضغاث مداد. ويأخذ وزراء الخارجية العرب قرارًا بإيقاف القتال «فورًا» يا سلام، وتشتبك قوة «السلام» الليبية مع قوة «السلام» السودانية انتقامًا لمذبحة السودان، فعلًا يا جامعتنا العربية «فورًا» هي الكلمة. «فورًا» يتم الانعقاد، ولا انعقاد، فورًا يتم القرار بلا نفاذ لأي قرار، فورًا إذا أرادت مصر توقُّف الهجوم على السودان الحبيب، ولكن «فورك» أيتها الجامعة الكبيرة ليس له من قرار حتى لو كان بقرار.

غنِّ يا عبد الحليم، وقُل يا نزار. ماذا تقول الآن يا نزار؟ وإذا كان صديقك المشعور فيه قد استشهد حبًّا وأثار قريحتك، فماذا تفعل القريحة حين يُستأصل شعب ويستشهد الناس حربًا، حربًا مغلوطة، حربًا مُنتحرة، حربًا مُجرمة؛ لأنها حرب في الاتجاه الخاطئ، حرب الصديق للصديق، حرب الإخوة المُصابين بلوثة وكأنهم يُعانون من مرضٍ خبيث وراثي.

غنِّ يا عبد الحليم؛ فعندنا نحن الآخرين حرب، قنابلها مقالات واتهامات، وضحاياها شعبٌ مضيَّع قتلوه بالشعارات والتلويح بأقدس المقدَّسات، ولم يبقَ إلا أن يُقيموا له المأتم، ويُهيلوا فوقه التراب.

غنِّ يا أخي، أمتِعنا لحظة، لحظة زمن واحدة، لشعبٍ ما أقلَّ ما عاش، وما أقلَّ ما يستمتع بالعيش إذا عاش، حتى لقد أصبح الموت هو فرحة المتعة الوحيدة الباقية. غنِّ يا عبد الحليم؛ فربما النسمات المُتصاعدة من قلبك الفوَّاح تُغطي على الطفح، طفح النفوس، وطفح الجلود. غنِّ، وكمان غنِّ؛ فقد أفلت الزمام، ولم يعُد أحد يستطيع وحده أن يصنع شيئًا، مهما قال أو كتب أو فعل، الحريق الأعظم بدأ، وجهنم قبل ميعادها انتصبت، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ❁ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ❁ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤–٣٦]، ودولته التي تُؤويه.

غنِّ يا عبد الحليم؛ فقد استمتعت بك ساعة، وربما ملايين معي اختلسوا هذه الساعة المُمتعة.

غنِّ؛ فقارئتك لم ولن تقرأ أبدًا فنجانًا يُشبِه فنجانك، رأت ونجَّمت كثيرًا، ولكنها لم ولن تعرف أحزانًا تُشبِه أحزانك. والحزن أبدًا ليس علينا بغريب، إنه دمنا ولحمنا وطعامنا وشرابنا، نحفظه ونرعاه ونُعتقه ونحتفظ به كما نحفظ ونُقدس التراث. كل ما في الأمر يا عبد الحليم ويا نزار ويا قارئة الفنجان أني أنا هذه المرة ألمح الحزن، وقد أخذ سواده الفحمي يتحوَّل إلى حُمرة نار، والفنجان من كثرة ما حمل فيه من بنٍّ أسود قد أخذ قاعه يثقل ليستعد للاعتدال.

حين يتعانق المجد والموت

جفَّت الأقلام، وطُويت الصفحة، وانتهت القصة.

واحدة من غريبات قصص الحياة.

طفلٌ فلَّاح مصري يتيم، كان مفروضًا أن يموت بالبلهارسيا في سن العشرين، ولكن بإرادة الفلاح المصري، الذي وكأنما اعتزم منذ أن وُجد على سطح الأرض أن يحيا إلى نهايتها، كافح اليتيم الفقير، ودأب، وجد، وجاع، وتشرَّد، وتعلَّم الموسيقى، لماذا الموسيقى؟ لأنهم كانوا في ملجأ الأيتام الذي تربَّى فيه يكونون فرقة موسيقى سماعية اشتهرت بها دائمًا تلك الملاجئ. وجاء إلى القاهرة وإلى الإسكندرية، وجاب الشوارع والأزقة والمدارس والقعدات، وبضربة حظ من هنا، وإرادة وصول من هناك، غنَّى لأول مرة للآلاف، ومنذ أن سمعه الناس أول مرة ارتفع فجأة من حيث كان إلى أعلى مراتب الغناء في مصر.

جاء صوته ليُعبر عن عصر ثورة قامت، وجيلٍ شابٍّ طامح مُتحمس، والتهاب أمة، فيه الحلاوة من عبد الوهاب القديم، والرقة من دقة الإحساس وطفولة المُعاناة ومُعاناة الطفولة، فيه رنة الفقر الأبي الشامخ، وتواضُع المصري المُتحضر عن إدراك أنه الأحسن، وفيه، وهذا هو الأهم، وقعٌ جديد؛ وقعُ العصر والمعاصرة، وقعُ الحياة حين تدور وتطرح إلى الوجود عالمًا لم يكن موجودًا في حاجة إلى نغمةٍ تُنظم إيقاعه، في حاجة إلى زفرته الخاصة، ولهفته الشخصية، وتعبيره عن حبه بطريقته الجديدة، لا حبًّا للمرأة فقط، إنه الحب للحياة كلها في شمولها ورحابها وامتدادها، حب جيل طامح عنيد، حب يُغنِّي الحب كما يُغنِّي الثورة، يُغنِّي لتماثيل الرخام على الزراعية مثلما يُغنِّي للمصير المجهول في قاع فنجال بُن محروق، يُغنِّي للحظ والدنيا والنجاح، يُغنِّينا، نصرًا يُغنِّينا إذا انتصرنا، نكسة يُغنِّينا إذا انتكسنا، قرارًا اتخذنا، يُغنِّينا مأساة عِشنا، يُغنِّينا مرحًا مرحنا، فرحًا فرحنا يُغنِّينا.

ومنذ الطفولة كان الموت قد بدأ يدبُّ فيه على هيئة تليُّف الكبد الناتج من بلهارسيا أمرضتنا لسبعة آلاف عام، وأخشى أن تظل تُمرضنا للسبعة آلاف عام القادمة.

وفي صدر الشباب كان وسيمًا، ولكن أحدًا لم يكن يرى الشيء الأخطبوطي القبيح داخله؛ المرض.

وبدأت الأعراض.

وشيئًا فشيئًا بدأت أيدي الأخطبوط وأظفاره تزحف من الداخل إلى الوجه الصَّبوح المليح في الخارج.

وبدأت قصة الأطباء وتانر ولندن واللهفة على صحة عبد الحليم.

ولكن وراء هذا كله كانت قصتنا بطولةً نادرة.

بطولته كفنَّان، إنه كان موهبة من المستحيل أن تحدُث أكثر من مرة في جيلٍ واحد، أو عدة أجيال، وكان يعرف هو — بذكائه الغريزي الهائل هذا — ويُدركه ويستثمره ويُطوره، ويريد أن يصل بصوته وغناه إلى الموسيقى العذبة الكاملة في إطلاقها وتجريدها حتى لتتكرَّر مرةً ومرة، ولها في كل مرة مذاقٌ مُفاجئ جديد، وقشعريرة استجابة طازجة.

أما بطولة عبد الحليم الإنسان، فهو أنه برغم كل ما به، برغم إدراكه المُبكر أنه كسيزيف حامل صخرة الفن والحياة، وفي داخله يحمل الصخرة الأثقل، صخرة المرض، كان قد وطَّن نفسه على أن يظل يصعد بالصخرتَين الهائلتين سطح الجبل بأسرع وقت وأشق جهد، وبخطواتٍ يُحمسها اليأس، ليس فيها سوى شعيراتٍ قليلة من الأمل كي يصل إلى القمة؛ قمة المجد وقمة الوصول، وكان يعرف ويُدرك تمامًا أن الموت رابضٌ له عند هذه القمة، ومع ذلك ظل بالصخرتَين يئنُّ ويصعد إلى المجد والموت معًا.

بطولته أنه — وهذا هو الغريب — لم يكُن به شذوذ الفنانين ولا تقاليعهم، كان وكأنما هو إنسانٌ مثلي ومثلك، إنسانٌ منا تمامًا، فيه كل خبثنا ودهائنا وشهامتنا وخورنا وشجاعتنا، ولكنه ينفرد عنا بقدرته أن يُغنِّينا.

بطولته أنه وهو يتلوَّى من العذاب ألمًا كان في نفس اللحظة يتلوَّى اندماجًا سعيدًا ليُسعدنا.

بطولته أنه كان في الداخل يبكي نفسه وحظه وقدره الإغريقي التعِس، وبكل ذرة في كيانه يُحيل بكاءه إلى ابتسامات سعادة على وجوهنا، ويُشعرنا بالحياة أقوى ما تكون الحياة.

بطولته أنه كان، وفي أعمق أعماقه، كان يائسًا تمامًا، كم من مرة صرَّح لي بهذا، ولكنه كان أملًا لنا، أملًا صادقًا كان يُغنِّي، صادقًا إلى درجةٍ يبعث فينا، هو الميت يأسًا، الحياةَ أملًا.

بطولته أنه جمَّل حياتنا خلال خمسة وعشرين عامًا بمشاعر جاءتنا كالغيث الجديد يروي فينا جدبًا كنا نُحسه، ويهمس لنا بأوهى وأرق وأعمق الانفعالات، وكأنه يغور فينا بصوته الحنون إلى أن يجعل كلًّا منا يُغنِّي رقته الخاصة وآهاته الخاصة وانفعاله الخاص.

هز أعماق الحياة في وجودنا هزًّا، و«مسق» حياتنا؛ صِبانا ونحن طَلقى كالعصافير، شبابنا ونحن نرود وِديان الحب والهجر، ونمسح دمعة الفرحة لنُتبعها بدمعة اللوعة، رجولتنا ونحن نبني، ونحن نغار، ونحن نُقاتل، ونحن نعشق عشق الكبار، تفاؤلنا إذا بسمت لنا الحياة، تشاؤمنا إذا أخافنا الواقع الحاضر، أملنا حين يُداعبنا وكأنه أحلام ما قبل اليقظة، أحلام النشوة تفتح عينَيك بعدها لتبدأ يومًا حافلًا باسمًا جديدًا، كأنه أبدًا ما مرَّ بك ولن يمرَّ بك.

بطولته أنه فعل هذا كله برغم أنف الأخطبوط المُتوحش الزاحف من داخله، ينهشه، يسحب رحيق الوجود من وجوده، ييبس جلده وملامحه حتى ليصبح كالبلحة «البريمو الجافَّة»، ولكنها جافَّة ليس جفاف النضج، وإنما جفاف العدم، وبرغم هذا فالأخطبوط يُحاصره من الداخل، ومن الخارج تبقى حنجرته، حِصنه القوي المانع المُتفرد، قويةً وكأنها تستمدُّ قُواها من قوة الخالق، ناضجةً كأجمل وأروع ما يكون النضج، منتصرةً حتى والجسد مُنهَك ومسحوق ومهزوم، حنجرة على وقعها نحيا، ونُغنِّي ونحن نحيا، ونحيا ونحن نُغنِّي، تُسعدنا وصاحبها أحوج ما يكون إلى ومضة سعادة، تُبكينا ثم تُفيقنا من بكائنا على صوتها الرنَّان المليء بالرجولة والأنوثة والطفولة والصِّبا والشباب والشيخوخة: أي دمعة حزن لا، لا، لا.

وهذه هي بطولة الفنان الحق؛ إذ هي دور الفنان الحق، دور الفن، الفنان، الفاني ليُبقينا، الذاهب لنعيش نوجد، المنتهي لنظل نحن نستمر.

اليوم نستقبل العندليب الأسمر، العندليب الذي مات وضمَّه صندوقٌ صغير بعد أن تذاوى جسده، وسقط معظم ريشه، ولم يبقَ منه سوى هيكل شادي الطبيعة الخفَّاق.

احتبس الصوت في حلقه الجاف، وزحف إلى الزائد إلى صدر يُغرقه، واختنق النغم في حلق العندليب ومات.

ولكنه اختتنق في الجسد المسجَّى الصغير الضيق لينطلق إلى فسيح الزمان والمكان، إلى كل مكان وزمان، إلى الأبد.

فقد كان قطعة من الصدق في فنه.

وحين يموت الرسَّام تتضاعف مئات المرات أثمان لوحاته.

وحين يموت الكاتب تصبح لكلمته وقعُ القدسية.

وحين يموت المُغنِّي يصبح صوته أثمن أمانة في عنق الأبد؛ إذ هو صوت لن يعود ولن يتكرَّر، ولن يزيد ولن ينقص.

جفَّت الأقلام إذن، وطُويت الصفحة، وانتهت القصة.

القصة التي ظل الناس حيالها لأكثر من عشر سنوات يُدركون أن نهايتها حانت، ولكن بطلها الحليمي ظل يُقاوم النهاية إلى نهاية النهاية، إلى أن بدأنا نشكُّ في قصة المرض نفسه، ونفترض فيه الوهم أو الخلود أنه مرض سيدوم إلى الأبد.

ولكن الكارثة أن المرض أبدًا لا يدوم إلى الأبد.

في لحظة لا بد أن تحلَّ النهاية فاجعة رهيبة وكأنها المفاجأة، مع أننا ظللنا نحياها العديد من السنين.

ذلك أن نهاية الحياة، حتى وإن تأكَّدنا منها، إنما تأتي، كالموت، صاعقةً ومفاجئة وغادرة.

مات العندليب الصغير الأسمر، ليحيا العندليب الكبير الأبيض، عندليب الخلود عندليبنا، عذوبته من عذوبتنا، وأنغامنا الكامنة خلقت أنغامه.

وما دُمنا نحيا فسيظل يحيا.

فالذي مات هو الحنجرة.

والذي سيحيا هو النغم الخالق المُبدع الخارق الممتد دائمًا عبر الزمان والمكان والأجيال.


هنداوي